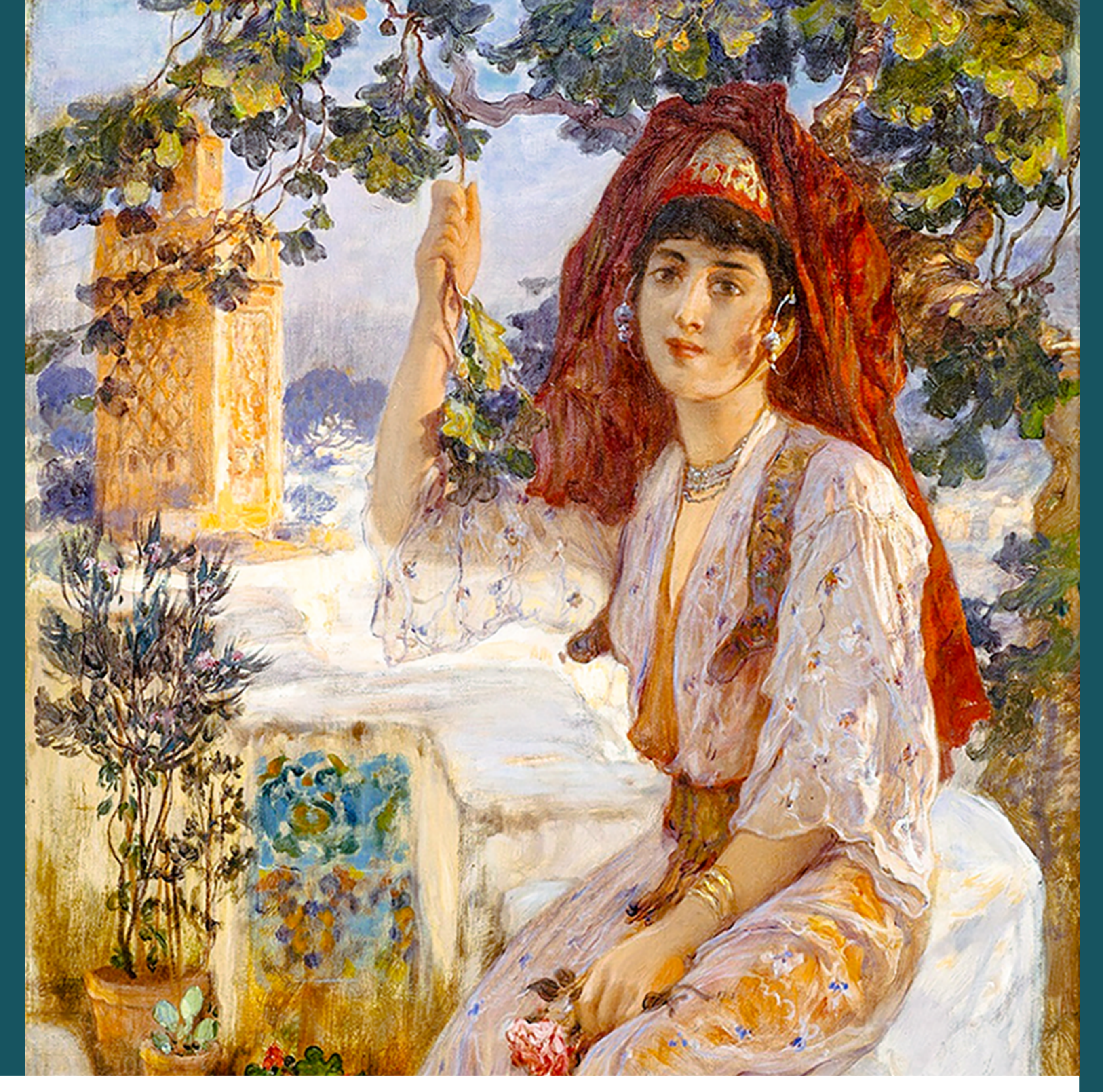


تأليف: فردريك أرثر برديجمان ترجمة وتحليل : سنوسي بريكسي رياض صليح

رحلة فردريك أرثر بريدجمان لاستكشاف مدينة تلمسان

وصف للمدينة، معالمها، أطفالها، وتقاليد سكانها في أواخر القرن التاسع عشر، مع دراسة تحليلية لنص الرحلة.

2025
1446

رحلة فردريك أرثر بريدجمان لاستكشاف مدينة تلمسان

وصف للمدينة، معالمها، أطفالها، تقاليد سكانها في أواخر القرن التاسع عشر (1886) ، مع دراسة تحليلية لنص الرحلة.

النسخة الأولى

تأليف : أرثر فردريك برديجمان
ترجمة، تقديم تعليق وتحليل : سنوسي بريكسي رياض صليح



فبراير 2025
شعبان 1446

صورة الغلاف : فتاة صغيرة من تلمسان، لوحة أرثر فردريك بريدجمان
تصميم الغلاف : سنوسي بريكسي رياض صليح
ردمك eISBN : 978-2-98017-254-0



الصورة السابقة : نافورة قصر المشور، تلمسان، 2015

تصوير : سمير تركي حساين

شكر وتقدير

أود أن أعبر عن أعمق مشاعر الامتنان والتقدير لعائلتي، التي كانت دائمًا مصدر الدعم والمساندة في كل مراحل حياتي. ولا يسعني إلا أن أخص بالشكر والديّ الكريمين وأخي العزيز، بالإضافة إلى بعض أصدقائي المخلصين، الذين لم يبخلوا عليّ بأي جهد لتوفير كل ما احتجته، سواء على المستوى المعرفي أو الشخصي. فبفضلهم وتشجيعهم المستمر، استطعت أن أحقق ما أنا عليه اليوم. كما أهدي هذا العمل إلى أرواح من فقدتهم من الأحبة، الذين تركوا أثرًا عميقًا في حياتي، وخلّدوا ذكراهم في قلبي وذاكرتي إلى الأبد.

أود أيضًا أن أعرب عن خالص امتناني لكل من ساهم، ولو بكلمة واحدة، في إثراء هذا الكتاب وتحسينه. سواء كانت تلك المساهمة من خلال ملاحظة دقيقة، نصيحة قيمة، أو حتى كلمة تشجيع، فقد كان لكل منها أثرٌ كبير في صقل هذا العمل وتطويره. فلكل من مدّ لي يد العون وآمن بي، أقدم جزيل الشكر والتقدير، لأن دعمكم كان حافزًا لي لإكمال هذا المشوار.

ولا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر إلى سمير تركي حساين، الذي كان له فضلٌ عظيم في إثراء معرفتي. فبفضل جهوده وتوجيهاته، فتح أمامي أبوابًا من العلم والمعرفة لم أكن لأصل إليها لولا دعمه وإرشاده. كما أود أن أعبر عن امتناني لهشام بختي، مؤسس موقع VitamineDZ، الذي كان ولا يزال رفيقًا لي في حوارات ومناقشات ثرية، ساهمت في توسيع مداركي وإثراء رصيدي الفكري. فلكل منهما مني كل التقدير والاحترام.

كما أتقدم بأحر التهاني إلى الباحث المجتهد محمد هواري، الذي يُشهد له بجهوده المشرفة في دراسة تاريخ تلمسان وضواحيها، وذلك بمناسبة صدور كتابيه، (أبحاث ودراسات في تاريخ تلمسان) و (تاريخ ومدن ونواحي تلمسان). فإنجازاته تُضيف إلى المكتبة التاريخية لمدينة تلمسان ثراء يستحق التقدير والاحتفاء.

تمهيد

تُنشـر اليوم العديد من الكتب، بما في ذلك كتب الرحلات الاسـتكشـافية الأجنبية التي تُعرف بأدب الرحالة، عبر الإنترنت بفضـل جهود منصـات مثل كتب جوجل (Google Books) وموقع الأرشـيف (Archive.org)، بالإضـافة إلى المسـاهمات القيمة للمتطوعين في المكتبات الذين يعملون بصـمت ويقدمون خدمة جليلة للعالم دون أن يحظوا بالتقدير الكافي. هؤلاء المتطوعون يفتحون أمام القراء والباحثين آفاقًا جديدة للاطلاع على كتابات ووثائق ومنشورات كانت في الماضي مغيبة أو يصعب الوصول إليها.

في الماضي، كان على الباحث أن يسافر مئات، بل آلاف الكيلومترات ليطلع على كتاب أو مخطوط واحد، وكان عليه أن يطرق أبواب المكتبات ويلتمس الإذن للوصول إلى هذه المصادر، ناهيك عن الاحتكار الذي فرضه بعض الأفراد على هذه الأعمال لأغراض تجارية أو استغلالية. أما اليوم، وبفضل التكنولوجيا، أصبح الوصول إلى هذه الكنوز التاريخية أسهل بكثير.

ومع ذلك، ورغم التقدم الهائل الذي شهده عصرنا في مجال النشر الرقمي وإتاحة المعرفة، لا تزال العديد من هذه الأعمال تفتقر إلى ترجمة عربية أو إلى تحليل معاصر ودراسة تاريخية نقدية تتماشى مع متطلبات العصر. وهذا أمرٌ يثير الاستغراب، خاصةً إذا أخذنا في الاعتبار الأهمية الكبيرة لهذه الكتابات التي قد تُعيد تشكيل مفاهيم تاريخية راسخة لسنوات طويلة، أو تسلط الضوء على قضايا بقيت غامضة أو عصية على الفهم بالنسبة للمؤرخين والباحثين.

هذه الكتابات، قادرة على كشف جوانب جديدة من التاريخ أو تقديم رؤى مختلفة تُغيّر من منظورنا للأحداث والوقائع. ومع ذلك، فإن غياب ترجمات عربية أو دراسات نقدية تاريخية يعني أن جزءًا كبيرًا من هذه المعرفة يبقى حبيس لغته الأصلية، بعيدًا عن متناول الكثيرين في العالم الناطق بالعربية.

لذا، فإن الجهود المبذولة في ترجمة هذه الأعمال وتحليلها ونقدها ليست مجرد خطوة أكاديمية، بل هي ضرورة ثقافية وحضارية. فهي تفتح الباب أمام فهم أعمق لثقافة الشعوب، وتسمح لنا بإعادة قراءة الماضي بمنظور جديد علمي، مما يسهم في إثراء الحوار الفكري والثقافي الذي لا طالما كان حبيس المعلومات المتكررة.

ومن بين هذه الكتب التي تستحق منا الاهتمام، نجد كتاب (Winters in Algeria) للكاتب والفنان المستشرق الأمريكي فريدريك أرثر بريدجمان، الذي وثق رحلته إلى الجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي. ورغم أن لوحاته ورسوماته، التي تصور حياة المجتمعات العربية، تنتشر على نطاق واسع وتلقى إعجابًا كبيرًا، إلا أن كتاباته لم تحظَ بنفس القدر من الاهتمام والدراسة مقارنة بأعماله الفنية.

ومن خلال بحثي المتواضع، يبدو أن أعماله الأدبية لم تُترجم إلى اللغة العربية حتى الآن. لذلك، قررت أن أترجم الفصول التي تتناول مدينة تلمسان تحديدًا، مع إضافة بعض التحليلات والتعليقات التي تهدف إلى تقريب القارئ من هذه المادة التاريخية. هذا الجهد يهدف إلى تعريف القارئ بأحوال المدينة في عام 1886، وإعادة استحضار جزء صغير من ذاكرة تلمسان كما كانت عليه قبل مئة وثمانية وثلاثين عامًا.

هذه الخطوة، وإن كانت متواضعة، تأتي من إيماني بأهمية البحث في تاريخ الشعوب، ولإتاحة الفرصة للقارئ للتعرف على رؤية خارجية لمدينته وتاريخه، مما قد يفتح آفاقًا جديدة لفهم أوسع لتطور المجتمع في تلمسان وهويته عبر الزمن.

الكاتب فريدريك أرثر بريدجمان، على الرغم من اعتداله النسبي في وصف رحلته إلى مدينة تلمسان، إلا أنه كان فنانًا مستشرقًا، وبالتالي فإن كتاباته تحمل في طياتها بعضًا من تلك النظرة الاستشراقية التي تتسم أحيانًا بالدونية أو التقليل المبالغ فيه تجاه المجتمعات العربية وتقاليدها. هذه النظرة، التي كانت سائدة في ذلك العصر، تعكس نظرة الغرب إلى الشرق كـ"آخر" مختلف ومتخلف، مما يجعل قراءة هذه النصوص تتطلب وعيًا نقديًا وحذرًا.

حاولت نقل النص إلى العربية بدقة، وهو أمر كان تحديًا بالنسبة لي نظرًا لعدم تمكني الكبير من اللغة العربية، ولقلة الوقت المتاح، بالإضافة إلى كونها تجربتي الأولى في هذا المجال. ورغم التقدم الكبير الذي شهده الذكاء الاصطناعي وأدوات الترجمة الآلية، إلا أن هذه الأدوات لا تزال غير كافية عند التعامل مع النصوص العربية، نظرًا لاختلاف تركيب الجمل والسياقات في اللغة العربية عن اللغات الغربية، ولغنى هذه اللغة بالمفردات الدقيقة والتراكيب الغنية. ومع ذلك، لا يمكن إنكار الفضل الكبير لهذه الأدوات التي ساعدتني في فهم بعض التراكيب الجملية وتسهيل صياغة بعض الفقرات.

لقد استمتعت بتأليف هذا الكتاب والعمل على تفاصيله الدقيقة. ورغم أن عملية الترجمة استغرقت مني بعض الوقت بسبب الحاجة إلى التدقيق المستمر، إلا أنني شعرت بقيمة النص وأهميته التاريخية، مما جعل الجهد المبذول يستحق كل هذا العناء. كانت الترجمة تتطلب إعادة صياغة العديد من الجمل والتراكيب بعناية، حيث إن تغييرًا بسيطًا، مثل إضافة فاصلة أو حذف نقطة، كان يمكن أن يغير المعنى تمامًا.

كما حاولت ما أمكن أن أختار المصطلحات العربية المقابلة بدقة، مع الحرص على تجنب الأخطاء الشائعة التي قد تُضعف من جودة النص. ومع ذلك، فأنا أدرك أن لا عمل يخلو من الهفوات. حرصت كذلك على استخدام كل الأدوات والموارد المتاحة لي

لمراجعة النص مرارًا وتكرارًا، وتحسين صياغته، وإثرائه بالهوامش التوضيحية والصور التي تضيف عمقًا للمحتوى.

هذه التجربة علمتني أن الترجمة ليست مجرد نقل للنص من لغة إلى أخرى، بل هي عملية إبداعية تتطلب فهمًا عميقًا للسياق الثقافي واللغوي، بالإضافة إلى الصبر والتفاني. وأتمنى أن يكون هذا الجهد خطوة نحو تقديم مادة تاريخية تثري المكتبة التلمسانية.

آمل أن تشهد الأدوات التقنية تطورًا أسرع وأكثر فعالية، خاصة فيما يتعلق بالمحتوى العربي، مما سيمكننا من ترجمة الأعمال وتحليلها بسرعة ودقة أكبر، ويُفسح لنا المجال للتفرغ لمواضيع أخرى ذات أهمية بالغة. فاستخدام الأدوات المتاحة والاستفادة من تقنيات العصر ليس خيارًا فحسب، بل ضرورة حتمية لضمان انفتاح العالم الناطق بالعربية وعدم انغلاقه على نفسه. لنتذكر أن التاريخ ربما يعلمنا دروسًا قيّمة، ففي الماضي، رفضت بعض الأوساط الفكرية استخدام آلة الطباعة بحجة قدسية النص والقلم، بينما كانت دار بريل في هولندا تستغل هذه التقنية لطباعة الكتب ونشر المعرفة، مما ساهم في إضاءة الفكر الغربي وجعله في مقدمة الأمم علميا.

كما أود أن أنوّه إلى أن قسم التحليل والدراسة الذي يتبع نص الرحلة هو مجرد اجتهاد شخصي مني، وليس عملًا أكاديميًا صادرًا عن مؤرخ أو باحث متخصص. إنما هو محاولة متواضعة لتسليط الضوء على نصوص تاريخية جديدة تتعلق بمدينة تلمسان، وذلك لإضفاء نوع من التجديد على الساحة التاريخية، بعيدًا عن الأعمال التي تكرر نفسها دون إضافة حقيقية، وتظل حبيسة الجهود الكتابية الفرنسية الاستعمارية. في هذا السياق، نحن بحاجة ماسة إلى المزيد من الاجتهادات الفردية والجماعية التي تُدقق في دراسة وتحليل معلومات تاريخية جديدة، فضلًا عن البحث عن نصوص غير مكتشفة تساهم في إغناء الذاكرة المعرفية وتجديد حماسة القارئ. هذا الجهد يصبح أكثر إلحاحًا في ظل المرحلة التي تعيشها أمتنا، والتي تتسم بركود فكري وثقافي غير

مسبوق. ففي وقت نحتاج فيه إلى إحياء روح البحث والاكتشاف، نجد أنفسنا نواجه تحديات كبيرة في تدوين تراثنا وتقديمه بأسلوب محايد يثري المكتبة التاريخية التي ستستفيد منها حتما الأجيال القادمة.

وفي الختام، أؤكد أن هذا الكتاب ليس سوى ثمرة جهد متواضع نابع من هواية صادقة، لم أُعنَ فيه بتنسيق الصفحات أو كثرة عددها، بل كان هاجسي الوحيد أن أنقل النص إلى العربية، اللغة التي أؤمن بأنها ستظل باقية حتى نهاية الزمان. فكل اللغات، مهما بلغت من العلو والانتشار، كان وسيكون مصيرها إلى الزوال، إلا العربية التي بقيت صامدة حتى الآن، تصارع تقلبات الدهر وتحديات العصور. حتى العبرية القديمة، التي كانت تنافسها، بدأت في الاندثار وحلّت محلها عبرية جديدة. النصوص الأجنبية الالكترونية المتوفرة اليوم، ليست في مأمن من الضياع. فقد تُغلق المواقع والمكتبات الإلكترونية بين ليلة وضحاها، وما هو منشور الآن ومتاح للجميع قد يختفي في لمح البصر. وخير دليل على ذلك الاهتمام البالغ الذي توليه المجتمعات الغربية بمراكز الأرشيف والمخطوطات، فهي لا تعتمد كليًا على مصادر الحفظ الإلكترونية، بل تحرص على توثيق تراثها بطرق متعددة.

وفي إحصائيات تبعث على التأمل والتفكر، قرأت مرة أن إسبانيا وحدها تترجم في عام واحد ما يعادل كل الأعمال التي ترجمها ما يُعرف بالعالم العربي منذ عهد المأمون في العصر العباسي إلى يومنا هذا. وحتى إن لم نستطع التحقق من هذه المعلومة بشكل كامل، فإنها أقرب إلى التصديق منها إلى التكذيب. هذه المقارنة تدفعنا إلى التفكير في حجم الفجوة التي تفصلنا عن العالم المتقدم في مجال الترجمة ونقل المعرفة، وتؤكد الحاجة الملحة إلى بذل المزيد من الجهود لسد هذه الفجوة.

لذا، فإن هذا العمل المتواضع هو محاولة لإضافة لبنة صغيرة إلى صرح المعرفة العربية، وأملٌ في أن يكون حافزًا للآخرين للمساهمة في إغناء تراث تلمسان وإحياء روح البحث والاكتشاف من جديد.

رسالتي إلى القارئ

رسالتي إليك، عزيزي القارئ، أن تنغمس في تفاصيل هذه الرحلة وتتابع تسلسل أحداثها بشغف، سواء كنت من أبناء تلمسان أو من أي ركن آخر من هذا العالم الواسع. فالتاريخ والقصص لا تعترف بالحدود، بل تتجاوزها لتلامس وجدان كل من يقرأها. أما إذا كنت تتصفح هذا الكتاب بدافع الفضول التاريخي فقط، دون أن يرافق ذلك شغف ويتبعه سعي – مهما كان بسيطًا – نحو المعرفة في أي مجال، فإنني أنصحك بأن تعود إليه في لحظة يكون فيها الاستمتاع بالقراءة رفيقك، لأن التاريخ يُقرأ بروحٍ مفتوحة، لا بعين باحثة فقط. فما قيمة كتاب لا يبهج قلب قارئه، ولا يلهمه بفكرة تضيء ظلامًا، ولا يحيي فيه ذكرى قد ماتت في أعماقه؟ كتاب يكتفي بملء رفوف الذاكرة بأحداث متراكمة، دون أن يمنح القارئ لحظة تأمل تترقى فيها النفس، هو كتاب بلا روح، كسماء بلا نجوم. وأستحضر هنا قولًا عزيزًا على نفسي لأحد أعلام الفكر الأندلسي، أبو إسحاق الشاطبي: «كل علم ليس من ورائه عمل لا يستحسنه الشرع».

كما أود أن أدعوك، أيها القارئ الكريم، إلى قراءة الأحداث التاريخية عامة على سبيل الفهم لا الحكم، فما يصلنا هو فقط ما تبقى محفوظا في الذاكرة، وما نقلته الأقلام وتداولته الألسن. وأرجو منك أن تتجاوز عن أي أخطاء قد أكون وقعت فيها جهلاً أو سهواً، كما أتمنى منك أن تشارك الكتاب مع أحبّائك.

تلمسان، في 12 فبراير **2025**، الموافق ليوم الأربعاء 13 شعبان 1446 هـ

سنوسي بريكسي رياض صليح

فردريك أرثر برديجمان

فريدريك أرثر بريدجمان، الفنان والكاتب الذي نترجم فصولًا من كتابه، يُعدّ أحد أبرز رواد المدرسة الفنية الاستشراقية. تميّز بريدجمان بقدرته الفنية الكبيرة على تصوير الحياة اليومية للمجتمعات التي زارها، خاصة في شمال إفريقيا، حيث ترك إرثًا بصريًا غنيًا يوثّق تفاصيل حياة تلك المجتمعات. أعماله الفنية، التي لاقت رواجًا كبيرًا، تُعتبر وثائق تاريخية مهمة تعكس حقبة معقدة من تاريخ المنطقة، خاصة في ظل الهيمنة الاستعمارية.

على الرغم من نجاحه الفني الكبير وبيع لوحاته في المزادات العالمية بأسعار خيالية، إلا أن كتاباته لم تحظَ بنفس القدر من الاهتمام. فمعظم الدراسات التي تناولت إبداعاته ركّزت على لوحاته، بينما ظلت كتاباته في الظل، بعيدة عن دائرة الضوء الأكاديمي. لذلك، تأتي ترجمة فصول من كتابه كمحاولة لتسليط الضوء على هذا الجانب المُهمَل، والذي يقدّم رؤية أدبية وتصويرية لتلك الفترة التاريخية، ويفتح الباب أمام المزيد من البحث والتحليل النقدي.

أ. البداية الحياتية والفنية

وُلِد فريدريك أرثر بريدجمان في العاشر من نوفمبر عام 1847 في مدينة تسوكيجي الصغيرة بولاية ألاباما، جنوب شرق الولايات المتحدة، في فترةٍ كانت البلاد تعيش فيها أجواء الحرب مع المكسيك إثر ضم تكساس. وفاة والده، الطبيب المتنقل الذي كان يمارس مهنته في ماساتشوستس، وهو في الثالثة من

عمره، ترك العائلة في ظروفٍ ماديةٍ صعبة. لتأمين لقمة العيش، اضطرت والدته، لافينيا، إلى تدريس الموسيقى. ومع تصاعد التوترات السياسية التي مهَّدت لاندلاع الحرب الأهلية، انتقلت العائلة أولاً إلى تينيسي، ثم استقرت لاحقاً في بوسطن، حيث أكمل فريدريك وإخوته تعليمهم الثانوي.

بعد فترة من الزمن، قررت والدته الاستقرار في بروكلين بولاية نيويورك. وفي عام 1863، بدأ فريدريك رحلته الفنية بتعلم أساسيات تصميم النقود البنكية في شركة الأوراق النقدية الأمريكية، بينما كان في نفس الوقت يدرس الفن في مدرسة بروكلين للفنون. هناك، بدأت موهبته الفنية تبرز بشكلٍ لافت، حيث عرض بعضًا من لوحاته الزيتية الأولى في المعارض التي كانت تنظمها جمعية بروكلين للفنون. ولم يلبث أن انضم إلى الأكاديمية الوطنية الأمريكية للتصميم، مما وضع اللبنة الأولى لمسيرته الفنية التي ستُكتب لها الشهرة لاحقًا.

ب.الانتقال إلى أوروبا ومحاولة التأقلم

بعد أن برزت موهبته الفنية في الرسم، قرر فريدريك أرثر بريدجمان الانتقال إلى أوروبا في صيف عام 1866، بدعم من رجال أعمال من بوسطن .كانت باريس في ذلك الوقت قبلةً للفنانين الطموحين، وحاول بريدجمان التأقلم مع أجواء المدينة الصاخبة، لكنه سرعان ما شعر بوحدة المغترب، فاتجه إلى بلدة بونت آفين في منطقة بريتاني شمال غرب فرنسا. هناك، انضم إلى مجموعة من الفنانين الأمريكيين الذين عملوا تحت إشراف الرسام الأمريكي روبرت ويلي، القادم من فيلادلفيا، والذي كان من أوائل الفنانين الأمريكيين الذين استقروا في المنطقة.

في بونت آفين، تأثر بريدجمان بجمال الطبيعة الخلابة وبساطة حياة السكان المزارعين، مما ألهمه لرسم لوحاتٍ واقعيةٍ تعكس بساطة الحياة الريفية وهدوئها. هذه

الفترة كانت محورية في مسيرته الفنية، حيث بدأ في تطوير أسلوبه الخاص الذي يجمع بين الواقعية والرومانسية.

ت.التعليم الفني في باريس وتأثير جيروم

في خريف نفس العام، عاد بريدجمان إلى باريس والتحق بالمدرسة الوطنية للفنون الجميلة، رغم الصعوبات التي واجهها بسبب كثرة طلبات الالتحاق. لكن بفضل مساعدة صديقه، الرسام والمصور الأمريكي توماس إيكنز، تم قبوله هو ومجموعة من الرسامين الأمريكيين. هناك، انضم إلى ورشة العمل التي كان يشرف عليها الفنان الفرنسي الشهير جان ليون جيروم، والذي سيترك أثرًا واضحًا على أسلوبه الفني.

من جيروم، تعلّم بريدجمان الدقة في الرســم والاهتمام البالغ بالمواضــيع التاريخية التي تجســد حياة الشـعوب العربية، وهو ما شـكّل دربه الفني وأثر فيه حتى أصــبح يُلقب لاحقًا بــــ جيروم الأمريكي. بعد أن تشـرّب أســس الفن الاســتشــراقي، بدأ بريدجمان عرض أعماله في أوروبا، حيث قدم أولى لوحاته في صـــالون باريس عام 1868، والتي لاقت استحسانًا كبيرًا.

استمر في المشاركة بالصالون، وفي عام 1877، عرض لوحةً استثنائيةً تصور جنازة مومياء في مصر، مما أكسبه ميداليةً ورسّخ مكانته كواحد من أبرز الفنانين المستشرقين الأمريكيين. هذه اللوحة، التي جمعت بين التفاصيل الدقيقة والموضوع التاريخي الغني، أصبحت علامةً فارقةً في مسيرته الفنية، وجعلته اسمًا لامعًا في عالم الفن الاستشراقي.

ث.الرحلات الاستكشافية وزيارة الجزائر

بســبب الحرب الفرنســية البروســية عام 1872، قرر فريدريك أرثر بريدجمان أن يخوض تجربة جديدة، متوجهًا إلى شــمال إفريقيا عبر إســبانيا، وصــولا إلى طنجة، المدينة التي ســـحرته بجمالها الفاتن، فأقام فيها لفترة قصــيرة. بعد ذلك، أبحر إلى وهران في الغرب الجزائري، ومن ثم اســـتقل القطار متجهًا إلى مدينة الجزائر،

ليخطو أولى خطواته في الجزائر. كانت تلك هي المرة الأولى التي تطأ قدماه هذه البلاد التي كانت لا تزال تحت وطأة الاستعمار الفرنسي. وقد استحسن مدينة الجزائر وشعر بانجذاب فوري إليها، وعبّر عن سبب ذلك كونه أحسّ بالألفة وكأنه في وطنه.

لم يكن هذا الشعور وليد المصادفة، بل كان نابعًا من المناخ الدافئ الذي بدا مألوفًا له، إذ يشبه أجواء ألاباما أكثر من تلك التي عهدها في فرنسا. فضلًا عن اختلافه التام عن بلدة بريتاني الفرنسية، حيث كان الطقس غالبًا غائمًا. لكن شغفه وحبه للاستكشاف لم يتوقف عند الجزائر وحدها، ففي شتاء 1873، أبحر إلى مصر، حيث نهر النيل، وذلك رفقة الرسام تشارلز سبراج بيرس في رحلة استكشاف ثقافية غنية. هناك، جذبته أسواق القاهرة القديمة، ومساجدها العتيقة، وأهراماتها التي كانت وما تزال ترنو إلى الأفق. في تلك الأرض، عمّق بريدجمان رؤيته الفنية، وفتح آفاقًا جديدة لتجربته الاستشراقية. هذه الرحلة لم تكن مجرد اكتشاف جغرافي، بل كانت رحلة داخلية أيضًا، حيث استمد إلهامه من تفاعله مع الثقافات المحلية وتفاصيل الحياة اليومية، مما أضاف بعدًا جديدًا لأعماله الفنية التي أصبحت لاحقًا علامةً مميزةً في لوحاته.

غير أن مدينة الجزائر ظلت تحتل مكانة خاصة في قلب بريدجمان، فعاد إليها في شتاء عام 1885، لكن هذه المرة رفقة زوجته الأولى، فلورنسا، التي كانت تستحسن الجو والحياة هناك. كانت هذه الزيارة مختلفة، حيث غاص بريدجمان هذه المرة في عمق المجتمع الجزائري، وأمضى فترة أطول في التأمل والرسم، مسجلًا تفاصيل الحياة اليومية هناك. جمع تلك اللحظات والرسومات في كتابه الذي يحمل عنوان (Winters in Algeria)، والذي سبق أن نُشرت مقتطفات منه في مجلة هاربر الأمريكية. في هذا الكتاب، يصف بريدجمان الحياة في بعض مدن الجزائر أواخر القرن التاسع عشر، ومن بينها مدينة تلمسان وضواحيها، حيث خصص لها ثمانية فصول كاملة. هذه المدينة، التي سنأخذ القارئ في رحلة إليها عبر ترجمتنا

أدناه، كانت واحدة من أكثر المدن التي ألهمت بريدجمان، حيث استطاع أن يصف لنا واقعها الثقافي من خلال لوحاته وكتاباته.

ج. النجاحات الفنية والأسلوب الاستشراقي

بحلول عام 1890، أصبحت أعمال بريدجمان من بين الأكثر شهرة في نيويورك وباريس. كانت لوحاته تُعرض في أشهر المعارض الفنية، مما أكسبه شهرة واسعة وثروة معتبرة. توج مسيرته الفنية بالعديد من الجوائز المرموقة، بما في ذلك ميدالية في صالون باريس، حيث كانت أعماله تعكس بشكل عميق الفكر الاستشراقي السائد في ذلك الوقت. بلغ عدد لوحاته ورسوماته أكثر من أربعمئة عمل فني، وكانت ورشته في باريس مليئة بالعديد من التحف والأدوات التي كان يجلبها من رحلاته إلى بلدان شمال افريقيا، مما جعلها واحدة من أكثر الأماكن إثارة للاهتمام في المدينة. بل إن بعض الفنانين كان يصف ورشته بأنها ثاني أهم مكان يستحق الزيارة في باريس بعد برج ايفيل، وذلك نظراً لاحتوائها على أشياء فريدة ومميزة[1].

المرأة العربية كانت حاضرة بشكل بارز في معظم لوحات بريدجمان، حيث شكلت عنصرًا أساسيًا في أعماله. وقد خصص جزءًا كبيرًا من إنتاجه الفني لدراسة وتصوير المرأة، مع إضفاء طابع إيروتيكي شهواني على بعض اللوحات، مستوحى من خياله الخاص. فكان يعيد صياغة المشاهد اليومية التي يراها بلمسته الفنية الخاصة، مما يجعل التصور النهائي يختلف أحيانًا عن الواقع الذي عايشه. هذا الأسلوب يعكس النظرة الاستشراقية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، حيث صُورت المرأة العربية كرمز للغموض والجمال المثير، بعيدًا عن واقعها الاجتماعي والثقافي.

[1] طالع ملحقات الفصل، لرؤية ورشته في باريس

ح. زواجه الثاني وسنواته الأخيرة

توفيت زوجة بريدجمان الأولى، فلورنسا، عام 1901 بعد صراع طويل مع المرض، وكانت تنحدر من أسرة ثرية في مدينة بوسطن. قضى معها فترة معتبرة من حياته، حيث رافقته في العديد من رحلاته. بعد ثلاث سنوات من وفاتها، وتحديدًا في عام 1904، تزوج بريدجمان مرة أخرى من مارث بيغر، وكان زواجهما ناجحًا ومستقرًا.

في سنواته الأخيرة، اهتم بريدجمان أيضًا بالموسيقى، حيث التحق بدروس موسيقية كان يلقيها الموسيقار الفرنسي الشهير شارل ماري ويدور، وذلك لشغفه بالعزف على الكمان، وهي هواية ورثها عن والدته، لافينيا، التي كانت مدرسة موسيقى. وفي عام 1907، نال وسام جوقة الشرف الفرنسي، وهو أعلى وسام تكريمي في فرنسا، تقديرًا لإسهاماته في عالم الفن.

خ. الوفاة والإرث الفني والتاريخي

توفي فريدريك أرثر بريدجمان في عام **1928** عن عمر يناهز ثمانين عامًا، ولم تحظَ جنازته وخبر وفاته بتغطية إعلامية كبيرة في ذلك الوقت. ومع ذلك، استمر إرثه الفني في النمو في السنوات التي تلت رحيله، حيث أصبح من أعمدة الرسامين الأمريكيين، كما أصبحت أعماله مصدرًا هامًا لدراسة الفن الاستشراقي والحياة الاجتماعية في شمال إفريقيا. فلوحاته تعتبر مرجعًا مهمًا في مجال التاريخ الثقافي، وتحمل إرثًا جدير بالدراسة، فقد أرخ بطريقة غير مباشرة لتفاصيل منسية للمجتمعات المغاربية والعربية في فترة معقدة من التاريخ.

وفي الختام، لم يكن فريدريك أرثر بريدجمان مجرد فنان، بل كان أيضًا مستكشفًا للحياة الثقافية في البلدان العربية، ينقل مشاهد الحياة اليومية التي رآها بعينيه ويترجمها بفرشاته وخياله. ليتَه يدرك اليوم القيمة التي تحظى بها لوحاته وأسعارها

الباهظة، والزخم الذي يحيط بأعماله عالميًا. فبفضل رسوماته، لم يقتصر دوره على توثيق ما شهده، بل ساهم في التعريف بالمدن المغاربية ووضعها على الخريطة الفنية العالمية.

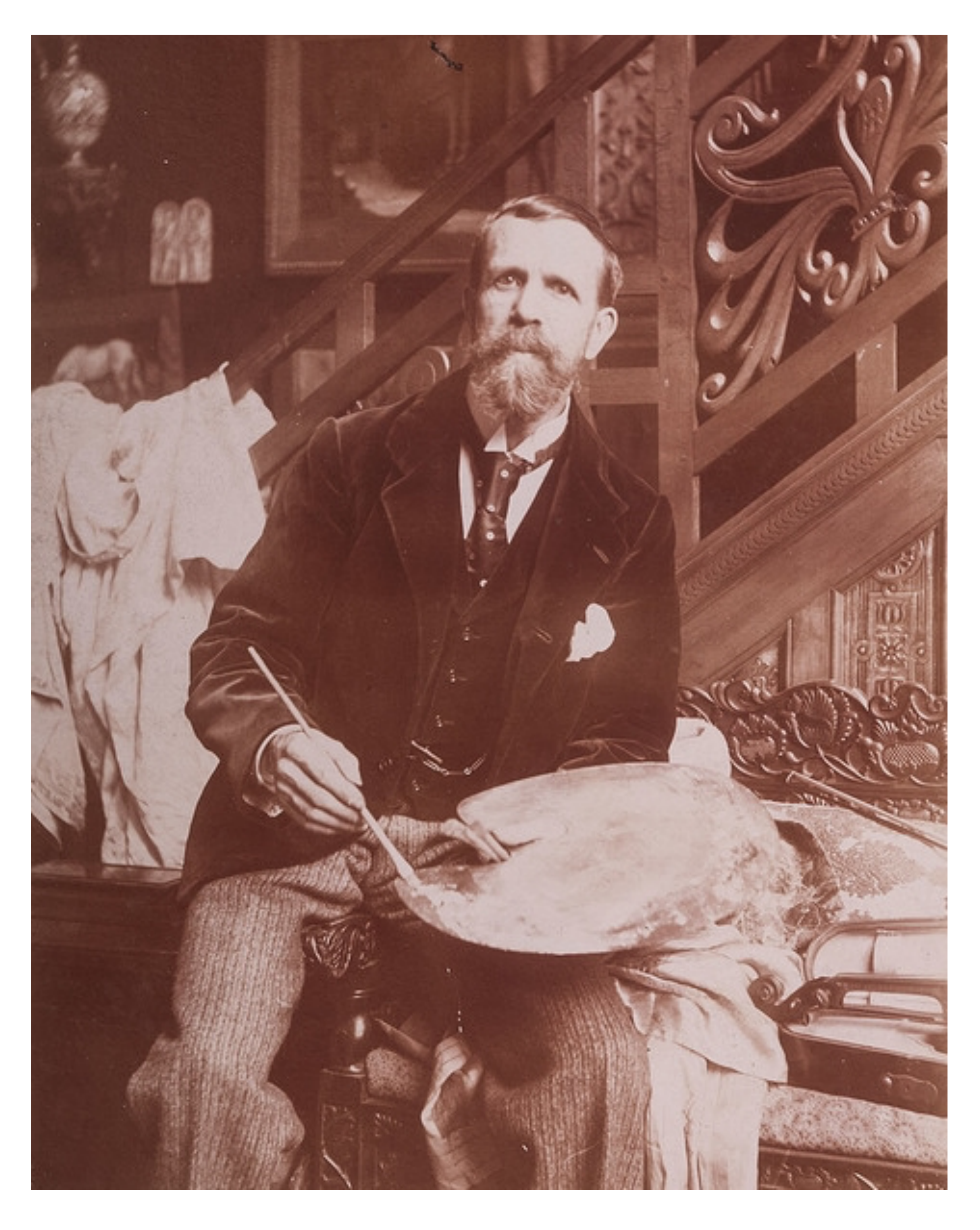
الملحقات



صورة فوتوغرافية لفردريك أرثر بريدجمان

صورة لورشة رسم بريدجمان في باريس

صورة لمعله الفرنسي جيروم، وفي الخلفية على يسار الساعة
لوحة تعود لمطعم في الجزائر، كهدية من بريدجمان



صورة بريدجمان في ورشته بباريس، فرنسا

قائمة المراجع

فيما يلي قائمة بالمراجع التي استندت إليها في إعداد التعريف بالكاتب، وأود أن أعبر عن امتناني للجهود القيمة التي بذلها هؤلاء الباحثون. وعلى خلافهم لم أخض في حياة فريدريك أرثر بريدجمان وأعماله بالتفصيل، بل حرصت على تقديم لمحة عامة عن الكاتب، تتيح للقارئ التقاط جوهر رحلته وفهم أسلوبه قبل التعمق في تفاصيلها.

وإن تنوع لوحات بريدجمان وكثرتها وغنى حياته الفنية تجعله بحق يستحق كتابا موسعا يتناول كافة مساره الفني. ولمن يرغب في المطالعة أكثر، أنصحه بالبحث على الكتب والمقالات المدرجة أدناه، حيث جلها متوفر عبر الإنترنت.

باللغة الأجنبية

- Les Orientalistes de l'école Américaine, Gerald M. Ackerman, 1991
- L'Algérie des peintres 1830-1960, Frederick Arthur Bridgman (1847-1928), un Américain à Alger, Marion Vidal-Bué, 2005
- Frederick A. Bridgman, Edward Strahan, The Art Amateur, Vol. 4, No. 4 (March, 1881)

باللغة العربية

- صورة المرأة الجزائرية في لوحات الرسام الأمريكي المستشرق فريدريك أرثر بريدجمان، ليلى عثمان، 2022

بخصوص الكتاب

لم تُنشر رحلة فريدريك آرثر بريدجمان لأول مرة على شكل كتاب، بل بدأ نشرها على شكل مقاطع في مجلة هاربر الأمريكية. نُشر الجزء الأول من الرحلة في العدد 75 من المجلة في أبريل 1888. بينما نُشر الجزء الثاني في العدد 75 من نفس السنة في ماي، تحت عنوان (A Winter in Algiers) أي شتاء في مدينة الجزائر. وبعد مرور تقريبا عامين على نشر مقاطع متفرقة من رحلته، قامت نفس دار النشر بإعادة إصدار الرحلة في كتاب موسع عام 1890، تحت عنوان أشمل هذه المرة (Winters in Algeria)، مع الإشارة أنه تمّ الانتهاء من إعداد الكتاب في عام 1889.

أ. معلومات عامة

يتناول الكتاب تفاصيل رحلة بريدجمان إلى بلاد الجزائر خلال زياراته الأولى والثانية والتي كانت للمرة الأولى عام 1873 والثانية في نوفمبر 1885، أين قام بزيارة بعض المدن مثل الجزائر، تلمسان، بسكرة، بلاد القبائل، إضافة إلى بعض مدن الشرق الجزائري. ولم تقتصر رحلته على الجزائر فقط، بل امتدت أيضًا لتشمل مدينة تونس، حيث قدم وصفًا للمدينة في تلك الفترة. سلط بريدجمان في ر حلاته هذه، الضوء على الجوانب الاجتماعية، والثقافية لهذه المجتمعات المغاربية.

الكتاب يتألف من حوالي 300 صفحة تختلف قليلا حسب النسخ، موزعة على 37 فصلًا، حيث خُصصت ثمانية فصول كاملة لمدينة تلمسان، مما يشكل حوالي 21% من محتوى الكتاب. هذه الفصول تمتد من الفصل السادس عشر حتى الفصل الثالث والعشرين، ويبلغ إجمالي الصفحات حوالي 47 صفحة، بمعدل متوسط قدره 6

صفحات لكل فصل. علاوة على ذلك، يتضمن الكتاب ما يقارب 62 رسمة أولية، خصصت منها 6 رسومات للمدينة.

ب. النسخة المعتمدة

تتوفر العديد من النسخ الإلكترونية للكتاب على شبكة الإنترنت، مع اختلافات طفيفة في جودة المسح الضوئي ولون الصفحات وعددها. وكانت أولى النسخ التي مُسحت ونشرت عبر الإنترنت عام 2007. النسخة التي اعتمدت عليها تتوفر في المكتبة العامة لبيلسيلفينيا في الولايات المتحدة الأمريكية، ونشرت في 15 أكتوبر 2014 بفضل جهود موقع الأرشيف Archive.org، وهي متاحة على الموقع تحت الرقم التعريفيArk:/13960/t42r6tk1d ، لقد فضلت الاعتماد على هذه النسخة تحديدًا لما تتمتع به من وضوح للنص، فضلاً عن جودة مسح الرسومات المرفقة بنص الرحلة.

فيما يخص غلاف هذه النسخة وهو مرفق مع المحلقات، فهو حقًا يلفت الأنظار بتصميمه الجميل، حيث يدمج بتناغم اللونين الأصفر والأخضر، تتوسطه سنبلة ذهبية. العنوان مكتوب بالإنجليزية مع زخرفية بالأحرف العربية لم أخُض في تفاصيلها، إلى جانب زخارف هندسية مستوحاة من الطابع المغاربي.

ت. عنوان الكتاب

يحمل الكتاب عنوان (Winters in Algiers) باللغة الإنجليزية، والذي يمكن ترجمته إلى العربية بـ«شتوة في الجزائر» أو «شتوات في الجزائر». أما العنوان الأصلي الذي استخدمه الكاتب في المقالات التي نشرها سابقًا في المجلة الأمريكية فكان عنوان مقترن تقريبا بمدينة الجزائر (A Winter in Algiers) أي «شتاء في الجزائر»، وذلك نظرًا لوصوله إلى مدينة الجزائر في أواخر نوفمبر من عام 1885.

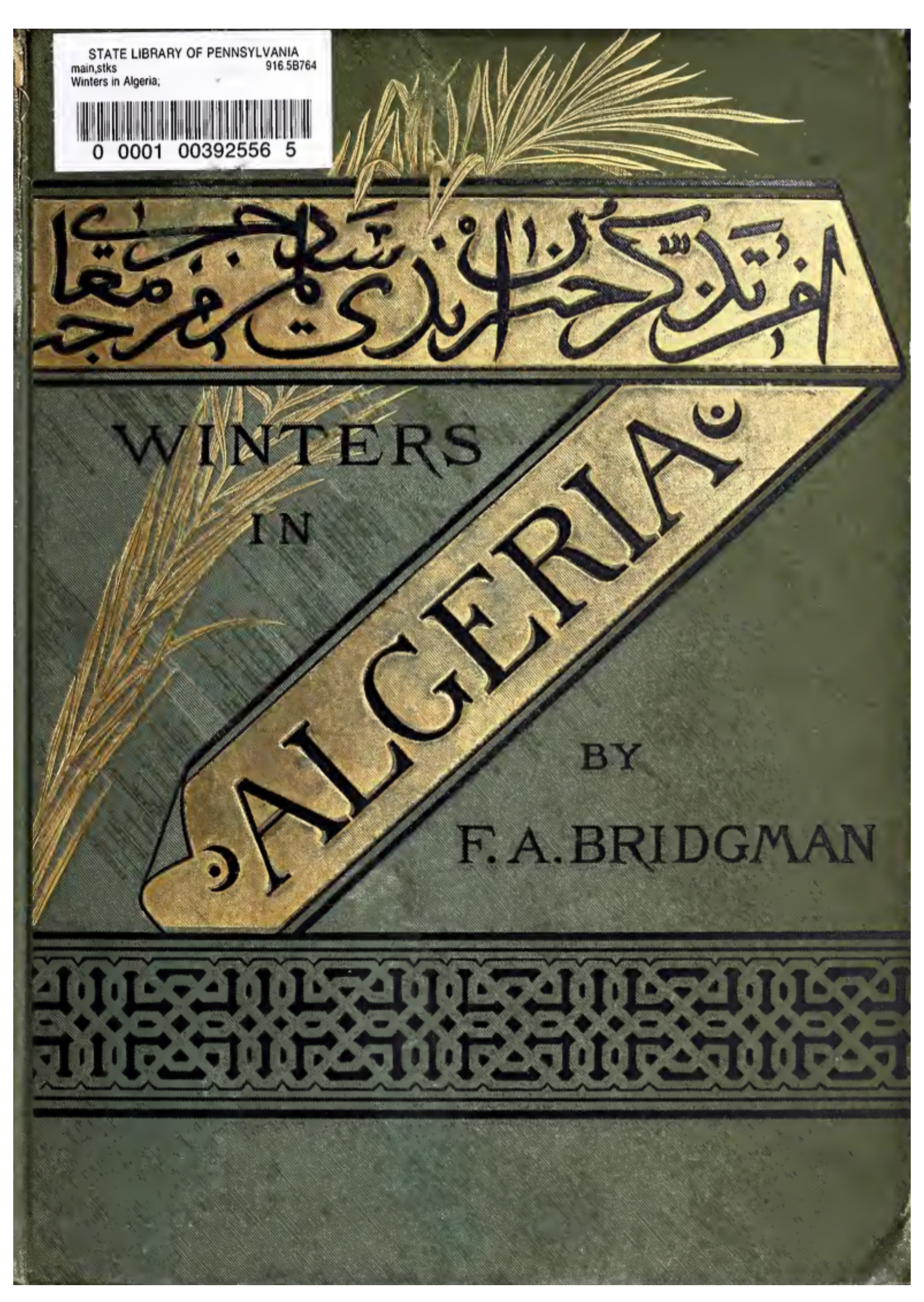
اللافت للانتباه أن عدة كتب وفصول، نُشرت قبل وبعد هذا العمل، حملت عناوين تقريبا مشابهة، وهو ما دفعني للتساؤل حول أسباب هذا التشابه. من خلال بحث

سريع، تبين لي أن مدينة الجزائر كانت تُعرف في تلك الفترة بكونها وجهة مفضلة للسياح الأجانب، خاصة خلال فصل الشتاء، حيث كانت تضم عددًا من المنتجعات الشتوية التي جذبت الأجانب، لا سيما في حي Mustapha Supérieur، فمن المحتمل أن يكون الترويج، الذي قامت به السلطات الفرنسية، قد ساهم في انتشار هذا النمط من العناوين والرحلات، ولو أني لا أجزم بذلك.

في هذا السياق، قمت بإعداد قائمة ببعض الكتب الأجنبية غير الفرنسية التي حملت عناوين مشابهة للكتاب الذي نتناول فصوله :

- **The Corsair and His Conqueror; a Winter in Algiers** – Henry E. Pope, 1860
- **A Winter in Algeria, 1863-4** – G. Albert Rogers, 1865
- **Winter in Algiers** – Alfred S. (Alfred Samuel), 1857
- **Memoirs and Letters of Sidney Gilchrist Thomas, Inventor** – Chapter XXI: A Winter in Algiers, Sidney Gilchrist Thomas, 1891

الملحقات



الغلاف الأمامي لنسخة الكتاب المعتمدة في الترجمة

أصالة المحتوى

الملحقات المرفقة بعد نهاية كل فصل من الرحلة لا تُعد جزءًا من النص الأصلي، وإنما أُضيفت كاجتهادات شخصية مني تهدف إلى تسهيل فهم النص وتصوره. فقد حرصت، في كل فرصة أتيحت لي، إلى إدراج صور أو رسمة تتناسب مع الفترة الزمنية التي يتناولها الكتاب، مما يساعد القارئ على تصور المعالم كما كانت في ذلك الوقت. أما فيما يتعلق باللوحات الزيتية التي رسمها فريدريك أرثر بريدجمان بعد رحلته في تلمسان، فلم تكن جزءًا من الكتاب الأصلي إذ أُنجزت لاحقًا؛ لكن قمت بإضافتها إلى الملحقات الخاصة بالفصول ذات الصلة، حتى يتمكن القارئ من الربط بين النص والأحداث التي مرّ بها بريدجمان، وبين اللوحات التي تمثل نتائج تلك الأحداث.

أما الهوامش، فهي كذلك ليست مدرجة في النص الأصلي، فقد ضُمّنت لتوضيح بعض المصطلحات أو لتقديم تفسيرات لبعض المفاهيم التي قد تكون غامضة، ومن أجل رفع اللبس وتسهيل استيعاب مجريات الرحلة.

وبخصوص الرسومات الأولية[2] التي وردت في نص الرحلة فهي مدرجة مع النص، أما تلك التي لا تتعلق مباشرة بتلمسان، فقد تعمدت عدم إدراجها ضمن نص الرحلة، فقد ركزت فقط على إدراج الرسومات التي لها صلة مباشرة بالمدينة. على سبيل المثال، في وصفه لمراسم حفل الزفاف، أضاف بريدجمان رسمة توثق طقوس الزواج في مدينة الجزائر، وليس في تلمسان، إلى جانب عدة رسومات أخرى، والتي حاول ربطها مع سياق النص. وقد بلغ عدد هذه الرسومات ثلاثًا: الأولى تمثل سطح زاوية

[2] رسم أولي أو تحضيري، رسم كروكي : نوع من الرسوم التمهيدية السريعة التي تُستخدم كوسيلة لتوضيح الأفكار البصرية أو وضع تصور مبدئي لتصميم فني.

عبد الرحمان الثعالبي في الجزائر، والثانية تصور نساء في مقبرة سيدي عبد الرحمان بالقصبة، والثالثة أشرنا إليها أعلاه وهي تخص مراسيم الزفاف.

الترجمة الفرنسية

أضفت نص الرحلة مترجمًا إلى اللغة الفرنسية في آخر الكتاب بعد فصل «دراسة وتحليل»، وذلك لإدراكي أن هناك مجموعة من الأشخاص يفضلون ربما القراءة والمطالعة باللغة الفرنسية نظرًا لخلفيتهم التعليمية الأولى. ولم أضاف له الهوامش والملحقات والتحليلات الموجودة في الترجمة العربي. إنما اكتفيت بنقل النص فقط.

الترجمة تمت بشكل أساسي باستخدام أدوات الذكاء الاصطناعي، أجريت فقط بعض التعديلات على أسماء الأماكن، وأعدت صياغة بعض الجمل لضمان لتسهيل القراءة. وعليه، فإن النص المترجم إلى الفرنسية غالبيته نتاج عمل آلي.

الرحلة

رحـلة إلى تلمسـان

تمتد الرحلة من الجزائر إلى وهران على مدار يوم كامل بالقطار[3]، حيث تسود الحرارة وتعم المشقة. تتحول القطارات إلى العمل ليلًا خلال أشهر الصيف الأكثر حرارة؛ إذ يكون عبور وادي الشلف الرهيب[4] الذي يهيمن على جزء كبير من الطريق، مستحيلًا تقريبًا خلال النهار. في فصل الربيع، يتزين هذا الوادي بسنابل القمح المتموجة، الأعشاب والزهور. لكن مع قدوم الصيف، تبسط الشمس سلطانها، فتسود كل ما تطاله أنظارها، فتمحو أي أثر للحياة، سواء النباتية أو الحيوانية. تبلغ الحرارة ذروتها (122 درجة فهرنهايت[5] في الظل)، مماثلة لما هي عليه عند أطراف الصحراء التي تبعد قرابة مئة ميل جنوبًا.

يستعمل العرب كذلك القطار؛ وبعد عناء وتدبير، أتمّوا شراء التذاكر، ثم أُرشدوا إلى مقصوراتهم، وهي غالبًا من الدرجة الثالثة، لكن الجلوس شاق عليهم لأنهم لم يألفوا الكراسي، فإذا ما وجدوا مساحة سانحة في المقعد جلسوا في وضعية تشابه القرفصاء[6]وخلعوا نعالهم، وقبضوا على أصابع أقدامهم – في هيئة قد ألفوا عليها، طلبًا للراحة – ملأت نوافذ العربات وجوهٌ متعبة، جادّة، مُتجهّمة، لفحتها الشمس، وتكاثفت فوقها حواجب دائمة العبوس من كثرة ما اعتادت على حماية الأعين المحمرّة من لهيب النهار. في حين احتشدت جموع أخرى بمحاذاة المحطّات، تحدّق إلينا بشوقٍ من تحت طيّات عمائمهم، ومن تحت ظلال قبعاتهم القشّية[7] الضخمة، التي يبلغ طول

[3] دخل خط السكة الحديدية من الجزائر إلى وهران حيز الخدمة كاملا عام 1871.

[4] وادي الشلف من أهم وأكبر الأودية في الجزائر، طوله 433 كلم ويمر عبر كل من عين الدفلى، الشلف ومستغانم.

[5] تقريبا 50 درجة مئوية.

[6] باللهجة العاميّة : مْرَبْعّيين.

[7] في تلمسان هذا النوع من القبعات يعرف باسم المْظل، يصنع من الحلفاء أو ألياف النخيل

حوافها وتاجها اثني عشر بوصة[8]، مزينةٌ بزخارف من الأشرطة والمُعيّنات الجلدية والقماشية، تتدلى منها شُرّابات[9] بألوان شتى.

على أطراف المحطات، يقف أهل الدَّواوير المجاورة «قرى من الخيام» في حالة من البؤس، مرتدين برنوسهم الوحيد، وهو لعله لم يفارق أكتافهم منذ بلوغهم سن الرشد – ثوبٌ مُرقع، ممزق، لا تكاد تعرف نسيجه الأصلي من كثرة ما رقّعوه ورتقوه – يتقربون بخجل آملين في البيع، حاملين ما جاد به زرعهم الضئيل من التمر والبرتقال، والمشملة[10]، والفول السوداني، والتين. رغم ما يظهر عليهم من قذارة وفقر، أليسوا أبهى وأشد وقعًا في النفس من أولئك المتسكعين الذين نراهم بيننا؟، بملابسهم الممزقة عند المرفقين والركبتين، وزِدْ على ذلك سوء عاقبتهم في الخمر، وهو أمر نادر الحدوث بين المسلمين؟

ما دام البرنوس[11] محافظًا على تماسكه، فإنه يظل محتفظا بفضل طيّاته الطويلة بروحه الكلاسيكي كما كانت التوغا[12]. حتى وإن كان متّسخًا أو مهترئًا، فأن هناك دائما تنوعا لا نهائيا في تدليله. قارن على سبيل المثال هذا الجَلال الذي لا يتقادم، مع الانهيار المبكر والمؤلم لزوج من البانطلونات، التي لا تستطيع الص حتى أمام عادية الأيام! كيف فقدنا سر الرقي في أزيائنا، وبدّلناها بهذا المظهر الذي يعُّج بالابتذال؟

السائح الأوروبي الفضولي والتاجر المسافر المتفاخر، المألوفين لدى جميع أصحاب الفنادق في المدن والمعروفين لدى النادلات الجميلات في المطاعم الصغيرة، يستمتعون بوجبات جيدة في محطات توقف القطار على طول الطريق، حتى في أشدّ

[8] البوصة، وحدة قياس أمريكية (Inch)، واحد بوصة تقابل تقريبا 2.54 سنتيمترا.

[9] الشرّابة، شكل من أشكال تزيين القماش، بالإنجليزية : Tassel.

[10] البشـملة أو البشـملة اليابانية، فاكهة صـغيرة الحجم، صـفراء اللون، تسـمى بوعضـيمة في تلمسان أو مشيمشة في الشرق الجزائري أو الزعرور.

[11] البرنوس، لباس تقليدي شـائع ذلك الوقت في أوسـط المجتمع الجزائري، طالع ملحقات الفصل.

[12] التوجة أو التوغا باللاتينية : Toga، لباس روماني فاخر، طالع ملحقات الفصل.

المناطق كآبةً، حيث يمكن للمرء أن يتخيل ألّا شيء يمكن أن يزدهر سوى العقارب والسحالي. كما يبرز بالطبع، المستعمر المُعتدل الذكي[13] والمستعمر المألوف، هذا الأخير يكاد يُظّن عربي في طباعه، فهو قريب جدا منهم من حيث العقلية والوحشية. فقد كان يركل ويضرب «الأنديجان الخنزير[14]»، كما يحلو له أن يسميه، ويخدعه في معاملاته، فإذا رد عليه هذا الأخير بمثل ما لقي، كان العقاب نصيبه، وكأنه الجاني الوحيد. ومن حيل هذا المستعمر الذكي، اختراعه لبرميل مزدوج القاع بعمق عدة بوصات، يستفيد منه عند شراء زيت الزيتون، حيث يسمح التصميم بتوفير مساحة إضافية لعدة لترات أخرى فوق قدره الحقيقي. وعندما يكتشف المواطن العربي مكر أخيه الأجنبي يخترع كذلك حيله الخاصة؛ فهو ليس بذلك الغباء.

وبعيدًا عن تلك الحيل السافرة، كانت ربّة البيت الأجنبية إذا تعاملت مع العرب في المدينة، وقعت في حيرة عظيمة، إذ تعجز عن إدراك التكلفة الحقيقية لما تضعه من طعام على مائدتها. فإن كان خدمها من المستوطنين الأجانب الذين رافقوها إلى الجزائر، أُجبروا على دفع الأسعار الخاصة بهم، وهي مرتفعة فوق المعتاد. وإن أرادت التوفير واستعانت بخدم من أهل البلاد، حصل هؤلاء على ما يلزم بأسعار العرب، ولكنهم كانوا يحتفظون بالفارق لأنفسهم، فتجد نفسها في نهاية المطاف وقد دفعت نفس الأسعار التي سعت إلى تفاديها.

يُزّود وادي الشلف بانتظام عبر سد مُشيّد من الحجر، إذ يبلغ طوله ألفاً وست مئة قدم، وارتفاعه مئة وثلاثين قدمًا، وعرضه بمثل ذلك، ليحجز نحو أربعة مئة مليون قدم مكعب من المياه التي تصبها الأنهار، لم يزل هذا السد قائمًا إلى أن انهار بفعل

[13] بحسب الكاتب، هناك نوعان من المستوطنين: الأول مستعمر يتمتع بقدر مقبول من الذكاء وسلوك معتدل، والثاني المستعمر المألوف بطباعه الوحشية، يشبه العرب في سلوكه.

[14] الأنديجين، هي التسمية التي كان يطلقها الفرنسيين على الجزائريين، وهي بمفهومها اللغوي، تعني الساكن المحلي أو الأصلي.

ضغط المياه قبل بضع سنوات، فعمّ الخراب أرجاء واسعة، وغُمرت القرى، وهلك المئات من سكانها غرقًا.

لا يخلو طريق السفر من مشاهد قِباب المرابطين، فإن لم تُبصر قبة تلمع كبيضة رخٍّ[15] عظيمة فوق التلال الصفراء أو الجبال الزرقاء البعيدة، رأيت قبّة أخرى تعلو قمّة وحيدة تتبدى في الأفق. وهي غالبًا ما تكون بيضاوية الشكل، تحيط بها أربعة أبراج صغيرة عند زوايا البناء المربع. المُرابط مدفون في جوار مسكنه، وقبابه تحفظ وتُرمَّمُ باشتراكات وتبرعات الحُجَّاج الذين يزورون المكان. على جانب الطريق غالبا ما يرى المسافر شجيرات شوكية مغطاة بقطع من الأقمشة الملونة؛ وهي من آثار العرب المارّين، إذ اعتادوا أن يمزقوا من أرديتهم ما تيسر ويتركوه عليها، علامة على إخلاصهم ووفاءهم لذكرى المرابط الذي يمرون بالقرب من «مكانه المقدس». وعند أول نظرة، تبدو هذه الشجيرات وكأنها احتضنت بقايا بائع متجول للملابس القديمة، حيث تبدو تلك الثياب متناثرة بين الأشواك وكأن الرياح قد لعبت بها وألقتها هناك.

وفي مناطق أخرى، تمتد التلال التي تكتسي بأشجار نخيل قصيرة لا يتجاوز ارتفاعها من قدمين إلى أربعة أقدام. وتظهر هنا وهناك أشجار بلوّط كثيفة الأوراق، منفردة وسط السهول، فتجذب العائلات البدوية، الذين ينصبون خيامهم المصنوعة من شعر الإبل قرب محيطها – ولكن ليس تحتها لأسباب أجهلها [16] – ويحيطون دُوَّارهم هذا بسياج من الشجيرات الشوكية المتلاصقة ذات اللون الرمادي، بغية صدّ الغرباء ومنعهم من الدخول. وتحت ظلال تلك الأشجار، تجد الحيوانات ملاذًا من حرارة الشمس الحارقة، فتستريح الخيول، الحمير، الماعز والأغنام في أمان.

تلفت الأنظار سُحُب صغيرة من الغبار تتطاير بسرعة، تحركها الرياح، وحمار يسير بتثاقل، حيث بدت قوائمه الخلفية ضعيفة ومتشققة نتيجة الحمولة الثقيلة في سن

[15] الرخّ، طائر أُسطوري كبير، معروف ببيضه الضخم.

[16] ربما يعود ذلك إلى خوفهم من الرياح وتساقط الأغصان، أو ربما لتجنب إشعال النار تحتها حفاظًا عليها.

مبكرة. على ظهره تجلس امرأة تحمل طفلًا في حضنها أو يتشبث بها من خلفها، في حين تمتد أرجله الصغيرة المغبّرة فوق الحقائب والسلال. يسير الأب ذو البشرة السمراء بالقرب منهما أو يتقدم الطريق، حاملاً بندقية طويلة على كتفيه، فيما تتدلى سكاكين خشنة الصنع من على حزامه الجليدي، المربوط بالقرب من يده. قد تبدو هذه الصورة في ظاهرها عشوائية وغير مرتبة ولا تناسب لوحة فنية، لكنها تحمل في أعماقها شيئًا من روح «الهروب إلى مصر[17]».

ومن وهران، وهي مدينة لا تكاد تثير الاهتمام في مختلف جوانب الحياة مقارنةً بمدينة الجزائر – على الأقل بالنسبة للفنانين والجمهور العام – استمرت رحلتنا بالقطار متّجهين إلى عين تموشنت، وذلك بعد أن قضينا ليلة مريحة وهادئة. كانت هذه المحطة النهائية[18] لا تملك من الأهمية ما يكفي لتلفت الأنظار، إذ لا تضم هذه المدينة سوى شارع رئيس واحد محاط بمنازل المستعمرين المتواضعة، فضلاً عن بعض المباني التجارية. ورغم ذلك، فإنها تُعد مركزًا هامًا على الطريق المؤدي إلى تلمسان.

أما العربة[19] التي كانت تكسوها طبقات من الغبار، فقد أُضيف إليها طابق ثالث، مُلئ بالصناديق، العلب، حُزم السيوف، الأحذية وأغطية النوم، وكلها أمتعة تخص جُندِيَيْن شابّين عائديْن من إجازة قصيرة. كانا يتمتعان بأنوف وخدود حمراء في مرحلة التقشير، وجباه محروقة بالشمس، في حين حافظت قبعاتهما على ما تبقى من بشرتهما البيضاء من لهيب أشعة الشمس الحارقة. كان هناك خلف مقعد السائق، ما يُسمى بغرفة الطعام، وهي تتسع لأربعة أشخاص، وربما تُعد أكثر الأماكن راحة في العربة. وخلف هذا المقعد، وتحت الغطاء البلاستيكي الذي يغطي الطابق الثالث، كان

[17] الهروب إلى مصر هو حدث تاريخي وديني ذكر في إنجيل متى، حيث فر يوسف ومريم والطفل يسوع إلى مصر للهروب من أمر الملك هيرودس بقتل الأطفال الذكور في بيت لحم.

[18] كانت عين تموشنت المحطة الأخيرة للقطار، حيث لم تكتمل أشغال ربط تلمسان بالسكك الحديدية حتى عام 1889، بينما جرت رحلته عام 1886.

[19] الاسم الإنجليزي والفرنسي لهذه الوسيلة النقلية هو Diligence، لم أتمكن من إيجاد المقابل العربي الصحيح، فاستخدمت كلمة (عربة) مكانها. طالع ملحقات الفصل.

يجتمع بعض العرب، في حرارة شديدة، متحلّين بصبر جبّار، وربما كان يواسيهم قولهم المعتاد كما في كل الحالات الأخرى «إنه مكتوب» عليهم أن يلاقوا هذه المعاناة. كانت المقصورة التي تتسع لثمانية أو عشرة أشخاص، أسوأ حالًا، فقد كانت دوّامات الغبار تتسرب إليها باستمرار من كل الجوانب ولا هواء متسرب لينعش هذه الأجواء. أما المقعد رقم اثنين الذي احتفظت به، فقد كان وسط العربة حيث كانت المقصورة المنفصلة التي تواجه الأمام. لم تكن المشكلة في أن المقعد كان يقع تحت مقعد السائق والذي كان يحجب الرؤية أمامنا، بل في أن مكانه كان محاطًا بسلال البيض وحزم الخُرْشُوف وأكياس التِّبن والشوفان التي كان الركاب قد جمعوها من القرى المختلفة، وكدّسوها تحت المقعد حتى تُسّلم في المحطات الأخرى على الطريق.

هُيّئت سبع خيول كُمَيْتيّة[20] ورُبطت بالعربة، بينما كنّا قد أنهينا تناول القهوة وتدخين السجائر بعد إفطار جيد، ثُمّ انطلقنا بسرعة في الموعد المحدد، وصوت السَّوْط يتناثر في الأجواء. تبين أن رفيقيّ في السفر كان شخصين من سكان تلمسان الميسورين، وكانا قليلي الكلام في البداية، لكن سرعان ما أصبحا أكثر ألفة. معرفتهما القليلة باللغة الفرنسية جعلت حديثنا محدودًا، ولكننا وجدنا وسيلة للتواصل بفضل سلة من ثمر البشملة اليابانية، التي كانت صفراء لامعة وحامضة بما يكفي لتكون منعشة للغاية، كنت قد اشتريتها من عين تموشنت استعدادًا لهذه الرحلة الشاقة التي تمتد لثماني ساعات.

ما إن صرفت نظري إلى رفيقي الذي يجاورني على اليسار، وإذا بخيالي يرفرف بي في لحظة، حتى شعرت كأنني أرى تجسيداً بديعاً لأمير من بيت تلمسان في العصور الماضية، عائدا من غرناطة عبر وهران إلى قصره الواقع على بعد نحو ألف متر عن سطح البحر. كان وجهه ذا ملامح دقيقة وحادة، وعيناه كقطعتين من اللؤلؤ في سوادهما، أما أنفه فقد كانت له انحناءة خفيفة، يُمكن للمرء أن يَلحظ الأثر الواضح لضغط سبابة

[20] الكُمَّيْتُ في علم الخيالة هو أشهر ألوان الخيول، لون بين الأحمر والبني، بينما يكون الذيل وشعر الرأس (العرف) أسود اللون.

والده عليه، حيث جعلت هذه الحركة أنفه يميل إلى الأسفل. والجدير بالذكر أن العرب، بخلاف خصائصهم العرقية، لا يمكنهم امتلاك أنف مرفوع بسبب هذه العملية. أما الفتيات الصغيرات، فهن أحيانًا يبدون وكأنهن أفلتن من هذه العناية التي يوليها الآباء، لأن قدوم البنت يعتبر نذير شؤم في الأسرة، وكل ما يسوء ينسب إلى ذلك النجم السيء الذي يحميها.

كان الأمير يملك شاربًا أسود محلقًا بشكل مربع فوق شفته، بينما كانت لحيته مشذبه بعناية حول عنقه، مُشكّلة شريطًا ضيقًا يمتد من الأذن إلى الأذن وينتهي عند الذقن. وفي أول محطة توقفنا عندها لتبديل الخيول، أصرَّ عليَّ أن أشرب معه، وكان ملتزمًا بدينه، فلم يتناول شيئًا أقوى من «مشروب الأورجات[21]».

لم نفقد أبدًا رؤية الجبل البعيد حيث تقع تلمسان، وكنت أتمنى لو كنت أرى شيئًا أكثر إثارة من هذا الريف المليء بأشجار النخيل القصيرة والصخور، حيث كان كل منعطف يبدو مشابهًا لما قبله، حتى أصبح المنظر رتيبًا. مررنا برعاة يقودون قطيعًا مكونًا من مئات الأغنام كما تمر السفينة عبر الماء. غير بعيد لمحنا دُوّار مكون من بعض الخيام البائسة، المتجمعة قرب منبع مائي، حيث كانت النساء يتسللن لملء المياه، يخفين وجوههن جزئيًّا ويستعدن للهرب إذا اقتربنا أكثر بالعربة. كانت بعض الجمال الهزيلة ترعى في الوديان الصغيرة، وترفع رقابها الطويلة لتحدّق بحزن في قافلتنا المتراصّة، المتثاقلة وهي تصعد التل، وسط سحابة من الغبار في إيقاع رتيب. بينما كانت أجراس الخيول المتكاسلة تُقرع باستمرار، في حين كان الركاب يغطّون في نومهم بعد أن أنهكتهم حرارة الشمس وغبار الطريق.

وصلنا إلى محطتنا الرابعة والأخيرة عند سفح الجبل، وكانت وجهتنا مرئية أمامنا. سلكنا الطريق بسرعة، مُلوِّحين بحوافر الخيول على طريق ممهّد يشبه شوارع

[21] بالإنجليزية والفرنسية Orgeat، مشروب حلو بنكهة اللوز ، يصنع عادة من اللوز والسكر وماء الزهر.

الشانزليزيه. وبينما كنّا لا نزال خارج أسوار العاصمة القديمة[22] وحصونها، اقترب منا ثلاثة شبان تتراوح أعمارهم بين ثمانية، واثني عشر، وستة عشر عامًا، يرقصون بشكل متعرج عبر الطريق حتى وصلوا إلى عربتنا، وكان كل واحد منهم يحمل زهرة بيده – إما سوسنا أبيضا أو ورودا – ألقوها علينا بأناقة عبر نافذة العربة. وقد تبين أن الأمير كان عمّهم، وقد قدِموا خصّيصًا للترحيب به بهذه الطريقة الجذابة. وكان أكبرهم، الذي يتمتع بعيون برّاقة ووجه مستدير ناعم، يمسك بيد الأمير ويركض بجانبنا، ويطرح أسئلة عديدة، وكان ذلك بعد أن تبادلنا التحيات المعتادة. كانت التحيات تشمل سلامًا مستمرًا مع رفع اليدين وخفضهما، والسؤال عن صحة جميع أفراد العائلة – مع تمنيات أن يبارك اللّه لهم في مساعيهم الشخصية والتجارية، إلخ ... ومثلما هو عليه الحال عند وصول العربات في جميع البلدان، أثار وصول عربتنا ذات العجلات الضخمة الحدث البارز في ذلك اليوم، مما لفت الأنظار وأثار نفس الاهتمام المعتاد؛ يبدو أن السائقين يتركون عمدا في كل رحلة خيولهم ترتاح في الطريق تمهيدًا للدخول بهذه الطريقة الانتصارية للاستعراض. مررنا عبر شارع مليء بأشجار الدّردار (؟)، شاهقة الارتفاع، والتي كانت فروعها تلتقي فوقنا مثل أقواس كاتدرائية إشبيلية[23]، وفوقنا تعلو جدران المشْوَر التي كانت في غاية من الضخامة والشموخ؛ القصر القديم، والمقّر المنيع للحامية الفرنسية حاليًا.

[22] كانت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط وعاصمة السلطنة الزيانية.

[23] يقصد أنها تشبه الأقواس المُدبّبة (بالإنجليزية :Pointed arches) في كاتدرائية اشبيلية، ويُعتقد أنها من خصائص العمارة القُوطية.

ملحقات الفصل

على اليمين، عائلة من حوز تلمسان مرتدية البرنوس، على اليسار تمثال القيصر غايوس بلباس التوغا

Fabrizio Garissi　　　　Félix-Jaques Moulin

عربة نقل أمام مدخل المدرسة الفرنسية العربية سابقا، متحف الآثار الإسلامية حاليا

Collection Henry



رسمة دعائية، لعربة السفر الى تلمسان.

في تلمسـان

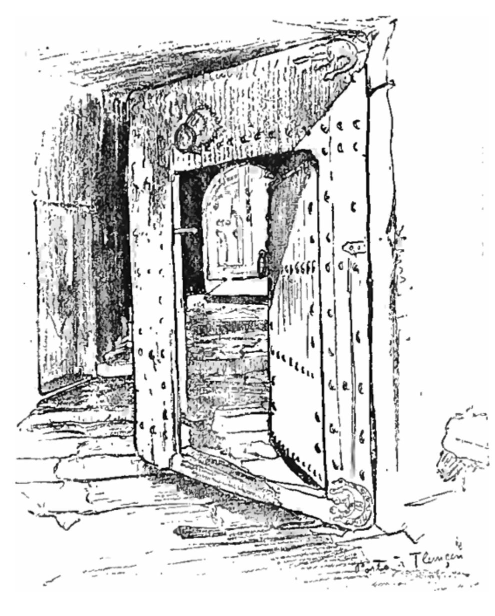
صاح صبيّ أسمر البشرة ذو مظهر شقي، مخاطبًا رفاقه : ((صُوّارررر!)) صُوّار، بينما كان يلتقط حقيبتي ومعطفي حيث كنت أحاول استعادة نشاط ساقي المتصلبتين. بدا عليه أنه خمّن مهنتي من النّظرة الأولى، وغمره السرور عندما أكدّت ظنه، فقد توقع عملًا مجزيًا لعدة أيام في حمل صندوق الرسم واللوحات، بالإضافة إلى مشاركة غدائي خلال الرِّحْلات البعيدة. لكن إلى متى ستسمح نزواته باستغلال هذه الفرصة؟ كان هذا سؤالًا يصعب الإجابة عليه. وكما كان الحال في مدينة الجزائر، لا يمكنني الاعتماد على ولاء هذا المساعد النافع مدة أربعة وعشرين ساعة. عانيت من خيبات كثيرة في الماضي، وكنت أظن أنني بعد أن غيّرت المكان والهواء وحتى العرق، قد أكون أكثر حظًا. نعم أقول العرق! لأن علماء الإناسة[24] يخبرونا أنّ هنا، قرب الحدود مع المغرب، يجد المرء المزيد من البربر، وهم سكان الجزائر قبل العرب والأتراك، ولا سيما على الساحل وراء وهران، حيث يظهر الطابع البربري بشكل أوضح. لكن يا للأسف!، فإن دمه[25] أغلبه مختلط بما نسمّيه الدَّم العربي، دون حتى أن نخوض في مسألة اختلاطه بالدم البربري أو التركي أو الموري، مما يجعله غير موثوق به تماما.

يقول كاتب فرنسي: ((من يقول عربي، يقول لصّ، بلا استثناء)). أخبرني محمـد، صاحب الأساطير التي سبق لي أن سردتها، رأيه في الكذب، وهو رأي يتشاركه مع بني جلدته. تتميز قصص العرب وأساطيرهم بعبارات منمقة ومجازات غنية لغويا، وقد عرّف لي الكذب قائلًا: "هو نسيم خفيف يتطاير من الشفاه ويتلاشى في الهواء؛ فما الذي يمكن أن يكون ملموسًا في كذبة أو أي كلمة تُقال؟" حسنًا يا محمد، لنفترض

[24] الأنثروبولوجيا، التسمية الأصح لغويا هي علم الإناسة، أو علم الإنسان.

[25] يقصد مساعده الصغير.

أنك نفثت بعضًا من هذه النسمات أثناء صفقة تجارية، ثم كانت النتيجة لكمةً على عينك أو ضربةً على رأسك... ألا تعتقد أن هذا النسيم الخفيف قد أصبح له تأثير وتحول إلى شيء ملموس في الهواء؟[26]



باب في تلمسان

تقع تلمسان على المنحدر الشمالي لجبل لالة ستّا[27]، على بعد ثلاثين ميلاً من البحر؛ ومن خلال فجوة بين التلال البعيدة باتجاه وهران، يمكن رؤية البحر الأبيض المتوسط في الأفق. موقع المدينة في غاية الجمال، مقابل الصخور القاحلة في الخلف. فوق الهضبة التي بُنيت عليها المدينة، وأسفلها، وعلى امتداد الأميال المحيطة بها، تنتشر بساتين كثيفة من أشجار الزيتون والتين، حيث تزدهر حقول القمح والزهور في تربة حمراء خصبة، تُروى بعناية وتُزرع بإتقان.

على بعد عدة أميال شرق المدينة، يتدفق نهر[28] ينساب من ارتفاع شاهق بين جدران صخرية ضخمة، مشكّلا شلالات رائعة[29]. ومن هذا النهر، تمتد قناة ريّ بطول يتراوح بين ثمانية وتسعة أميال، يبلغ عرضها وعمقها نحو ثلاثة أقدام. تحتوي هذه القناة على ثقوب صغيرة لا يتجاوز قطرها بوصة أو اثنين؛ تسمح هذه الفتحات بمرور الماء لتشكّل نظام ريّ منتظم. كل ما فوق خط القناة المستقيم هو صخور عارية، تتخللها بقع متفرقة من الأعشاب القصيرة هنا وهناك؛ أما أسفل القناة، فتمتد الخضرة وتنبض

[26] يمزح الكاتب مع محمد، فيضرب له مثالًا عن تاجر يكرر الأكاذيب لبيع بضاعته. لكن إذا كشف المشتري خدعته، فقد يرد عليه بعنف، مما قد يحول الكذبة، التي وصفها المرشد بأنها مجرد نسيم عابر، إلى مشكلة ملموسة بعواقب وخيمة.

[27] في النص الأصلي كُتبت لالة سَتّا، لكنها تسمى لالة ستي.

[28] وادي المفروش.

[29] شلالات الوريط.

الحياة. آه كيف كانت تلمسان والمنصورة في أوج مجدهما! يتعصر القلب شعور لا يوصف من الحزن عند يتأمل المرء في الأطلال التي كانت يوما ما مئات المساجد والقصور، فضلا عن الديار الصغيرة البديعة، ذات البلاط المزين، الأعمدة الأونيكسية الشفافة، الأرصفة، الزهور، النافورات والحدائق الغناء.

لا تزال المآذن الستة القائمة تتمتع بأبعاد وتصاميم رائعة، مشيدة بأجمل الطراز الموريسكي. الشاهد الوحيد المتبقي من أحد أمراء المنصورة هو المئذنة، وهي آية في الجمال. مع أن وجهًا واحدًا وبعض أجزاء الجوانب الأخرى فقط بقيت منها، إلا أن ما تبقى يكفي ليجعلها كنزًا فنيًا. ولحسن الحظ، ما زالت هذه البقايا محفوظة ومدعّمة بأعمدة حديدية وحجارة جديدة[30]، كما يُشرف عليها حارس يمنع هواة جمع التذكارات من اقتطاع قطعة مزخرفة من هنا، وبلاطة من هناك، أو نقش تواريخهم وأسمائهم التافهة على الجدران. عندما يرى المرء أسماء مثل الإسكندر أو قيصر أو نابليون أو حتى ثاكيري منقوشة على الأهرامات أو في أبو سمبل أو الكرنك[31]، فإنه يرى فيها علامة تاريخية، لكن عند يرى توقيعا لاسم مثل ((سميث)) أو ((براون)) أو ((هاتشينسون)) – إن لم تخني الذاكرة، لقد كرر هاتشينسون كتابة اسمه بحروف كبيرة يصل ارتفاعها إلى قدم، فغطى النقوش الهيروغليفية الجميلة، التي تزين أسقف وجدران المقابر والمعابد المصرية – عندها يشعر المرء برغبة في سكب القطران والريش على هذا الجاني السخيف وقطع آذانه. من المؤسف حقًا أن البلاطات والأبواب والرخامات القيّمة التي جُمعت بشكل عشوائي في متحف تلمسان لا تحظى بنفس الاهتمام الذي تحظى به مئذنة المنصورة، ولا يتم تصنيفها أو الحفاظ عليها بالشكل المناسب؛ فبعض القطع مفقودة، ولا يبدو أن أحدًا يعرف سبب أو كيفية اختفائها.

[30] بدأت أعمال ترميم مئذنة المنصورة عام 1876 وانتهت عام 1890 بعد دراسات أجراها المهندس الفرنسي إدمون دوتوا Edmond Duthoit.

[31] سبق للكاتب أن زار مصر.

حاصر أبو يعقوب[32] تلمسان لمدة أربع سنوات، ونصب معسكره على بعد ميل من المدينة، بهدف إخضاعها في غضون أيام قليلة عن طريق التجويع. لكن عندما أدرك أنه قد بالغ في تقدير قوته أو قوة مَلك تلمسان، قرر البقاء وشرع في بناء مدينته الخاصة. وما تبقى لإظهار قوة هذا الأمير المنافس هو المئذنة الرائعة، وجدران المسجد، التي توضح لنا حجمه وشكله، اضافة إلى بعض الأبراج الصغيرة، والكتل الهائلة من الخرسانة التي كانت تشكل السور المحصن ذو الشكل المربع، والذي يغطي مساحة مئتين وخمسين آكر[33].

كنا نسير بمحاذاة التحصينات القديمة لتلمسان، حيث كانت الأرض عند الحافة السفلى للهضبة تغصّ بالصبّار الهندي العملاق، الذي تزينه أزهاره وثماره الناضجة، إلى جانب الشجيرات والأدغال المتنوعة التي تغطي الأرض بكثافة. انطلق كلب عربي شرس ذو نباح أجش، يظهر أنيابه وشعره المنتصب، مثيرًا الذعر وهو يندفع نحوك، إلا أن سلسلته الطويلة كانت تمنعه من التقدم أكثر. لقد كان يحرس أشجار الكرز أو التين من عبث الجيران.

يمكنك أن تدرك أنك تقترب من كوخ أو خيمة تكاد تختفي وسط النباتات، حين تلمح من خلالها وجه امرأة جميلة تدير مقبض رحى حجرية، حيث يدور حجر الغرانيت الدائري فوق آخر مماثل. وبينما تطحن الحبوب أو الذرة في هذا الطاحونة البدائية، يتساقط الدقيق حول الحجر السفلي، ليستقر فوق قطعة من القماش أو جلد خروف. إلى جانب الحاجز الطبيعي الذي تشكّله أشجار الصبار والبشملة، يمكنك أن تلاحظ حواجز أخرى مصنوعة من القصب المدفون في الأرض، متراصة بالقرب من بعضها البعض، ومشدودة معًا على مسافات متفرقة.

[32] حاكم من سلالة بني مرين، المنافسة لسلالة بنو عبد الواد (الزيانية)

[33] وحدة قياس أمريكية، خميس آكر تعادل تقريبا 20.23 هيكتار.

كان الأطفال، بروحهم الساحرة، يهرعون نحو الطريق لملاقاة المارّ الغريب: ((سوردي، موسيو)) (قطعة نقدية، سيدي)، ويرددونها بنغمات طفولية جذابة، تارة مرتفعة وتارة منخفضة، يصعب مقاومتها. وعندما توقفت وأخرجت قطعة نقدية من جيبي، فرّوا بعيدًا في حالة من الفزع، ولم يعودوا إلا بعد إقناعهم بأن يأخذوا المال دون خوف. وحينما اقتربوا أخيرًا، أشاروا لي بأن أضع القطعة على الأرض. يُعلَّم العرب منذ صغرهم، الحذر والريبة تجاه الآخرين. لكنني قلت لأحدهم: "لا، أيها الصغير اللطيف عليك أن تأخذها من يدي." عندها تجرأ أحدهم وأخذها، ثم ركضوا جميعًا كما لو كانت الشياطين تطاردهم.

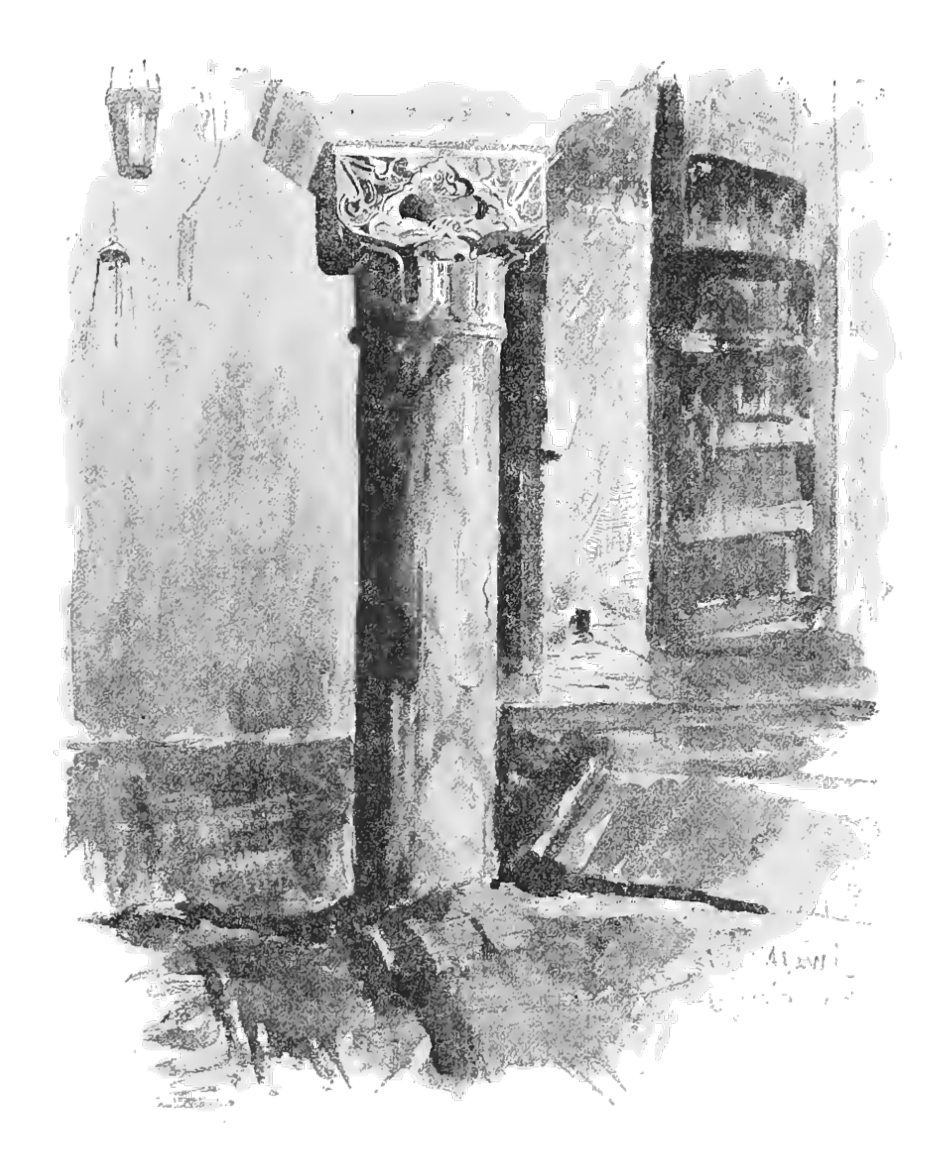


مكان الغسيل، خارج الجدران، تلمسان

تقدّمنا أكثر حتى وصلنا إلى بركة حيث كانت النساء، والزنجيات، والأطفال يغسلون فيها الملابس والسجادات، بالإضافة إلى جلود الخراف، بكل ما أوتين من قوة. ولم يُبدين أي اهتمام بي أو بمرشدي. كان الحايك مكدسًا على رؤوسهن، فيما تدلّت طيات

متعددة من الأحزمة حول خصورهن. بينما كنّ يمسكن بملابسهن الداخلية وقناديرهن الخارجية تحت الركبتين، وبأذرعهن وركبتهن وأقدامهن المكشوفة كنّ يضغطن ويحركن الكتان المبلل، وكل واحدة منهن تدير جسدها في اتجاه مختلف. وفيما كنّ يعصرن الملابس، كنّ يُعلّقن على وجود الرُّومي (أنا هو الرّومي)، الذي لم يخفِ سروره من اكتشاف هذه الفرصة النادرة لدراسة هذا المزيج الفريد من الجمال والقبح، والمصفوف في تنوع لا حصر له من الأقمشة وبألوان شتى – سميكة، رقيقة، جديدة، بالية، ومهترئة. ومع ذلك، وكما هو الحال مع معظم التركيبات العربية للألوان عندما يُترك الأمر للسكان المحليين، دون أن يتأثروا باستخدام صباغاتنا الرخيصة والبشعة، مثل الأخضر الزرنيخي، والأرجواني، وما شابه، كان كل شيء يبدو متناغمًا. نساء تلمسان، وكعادة الأعراق شبه المتحضرة، يرتدين دائمًا الكثير من المجوهرات، ولا يخلعنها حتى عندما يكنّ في غمرة العمل.

واصلنا سيرنا حتى اقتربنا من مَدْبَغة عربية، ورغم أنها لم تكن تُرَ بعد، فقد استطعنا أن نخمن مكانها مُسبقا. رأينا العشرات من الرجال العرب، وكان لون بشرتهم بنيًا داكنًا، وكأنهم قد خرجوا لتوهم من أحواض المدبغة. كانوا يعملون بجد وسط أجواء كريهة لدرجة أن أنوفهم بدت وكأنها توقفت عن الشم. وبالطبع، لم يكن هذا المشهد ليكتمل دون وجود ثلاث أو أربع كلاب شرسة.



عمود من الجَزْع (الأونيكس) داخل مسجد سيدي الحلوي

زرنا بعدها جامع سيدي الحَلَوي (صانع الحلويات)، الذي يقع خارج أسوار المدينة. وقد كان مكتمل البناء، ولكنه يا للأسف، هو مهمل. تبني الطيور أعشاشها حيثما تشاء، وحصيره قديم ومغطى بالغبار، ونافورته متهدمة وجافة. ما عدا المئذنة والأعمدة الثمانية الأونيكسية، فقد كانت تصاميمها غاية في الجمال. ربما سيحتفل سيدي الحلوي بعيد ميلاده، عندما يُهتم بمسجده، ويُكنسح ويُضاء على الأقل[34].

[34] طالع محلقات الفصل، لمعاينة صورة المسجد، التقطت تقريبًا عام قبل زيارة الكاتب

مع أنها معلومات شخصية، لكنني ملزم بأن أعّرف القارئ بمرشدي، فقد كان رجلاً تلمسانيا طيبا، سلسا في التعامل، وذو وقار في المظهر، يُدعى الميلود بن محمد بن كوجهباس[35]، المعروف بين أهالي المدينة بِـبَابَا الميلود أو **Père Miloud** وذلك حسب ما أظن، أولا بسبب تقدمه في السن - ثماني وستون عامًا - وكونه جدّ للكثير من الأحفاد، وثانيا بسبب أنه يتولى حماية جميع الغرباء القادمين إلى بلدته الأم، ليريهم المعالم المختلفة، وبأسلوبه الجذاب يبقيهم تحت رعايته مقابل ثلاث فرنكات[36]. رغم أنه بإمكانه استعراض كل ما يستحق المشاهدة في تلمسان وضواحيها في مدة لا تتجاوز دورة كاملة لعقارب الساعة، إلا أن حيلته كانت تجعل الزوار يستمرون في استئجار خدماته لفترة أطول.

بعد عودتنا من مسجد سيدي الحلوي، دخلنا تلمسان مرة أخرى عبر إحدى بواباتها الكبرى العديدة. كان هناك حوالي ستون متسولًا، بعضهم يرتدي الأسمال[37] وبعضهم بلاها، يستمتعون بأشعة شمس الظهيرة، متكئين على الجدران. أما الماعز والأغنام، فقد كانوا، مثلنا أنا والميلود، يلتفون حول زاوية الجدران بحثًا عن الظل للهروب من أشعة الشمس الحارقة. كانت الخيول والحمير تقف تحت أشجار الموز، المحيطة بالطريق الرئيس، وبالقرب من الخيام حيث الأطفال والكلاب الصغيرة والماعز، كلهم مختلطين مع الأواني والمقالي وأطباق الكسكس الخشبية وجلود النعام والبساطات، ولفّات الحبال. باختصار، جميع الأدوات – ألف أداة وأداة – التي تجاري احتياجات الرحالة المتنقلين الذين يعتادون الخيام على جوانب الطرق في الشمال.

[35] كتب اسمه في النص الأصليّ : Miloud ben Mohammed ben Koujahbass.

[36] في عام 1880، يُعادل الفرنك الواحد 3.8 يورو، وثلاثة فرنكات تُعادل 11.4 يورو. نظرًا لتراجع قيمة العملة حتى بلغت 3 يورو بين عامي 1900 و1914 حيث استقرت قيمتها. يمكننا أن نتصوّر فرقًا، على مدى 20 عامًا، تفقد العملة 80 سنتيم في القيمة. أي بمعدل 4 سنتيمات سنويًا. في عامي 1885-1886، تعادل 3 فرنكات جرمانية (اسم الفرنك في تلك الحِقْبَة) وبعملية حسابية 3 فرنكات تعادل تقريبًا 10.80 يورو اليوم.

[37] ثياب رثة وبالية.

ملحقات الفصل

صحن مسجد سيدي الحلوي، عام 1885، جوف نويل

داخل مسجد سيدي الحلوي، عام 1885، جوف نويل

جولة في المدينة

داخل أبواب المدينة، تمتد صفوف طويلة من الدّكاكين، وهي تشهد نشاطًا تجاريًا جيدًا، سواء بالجملة أو بالتجزئة، وذلك في بيع الأقمشة القطنية (الكاليكو)، المطبوعات[38]، المناديل، الملابس الصوفية، القطنية، بأسعار رخيصة وبألوان زاهية مثل الأحمر والأصفر، بالإضافة إلى المُخَرَّمات (الدانتيل)، الشاش[39]، الخيوط ذو اللون الذهبي وغيرها – ومن بين هذه السلع جميعا، تبرز المناديل كأكثرها شيوعًا؛ حيث يأتي بعضها مزخرفًا بتصاميم هندسية، بينما يتزين بعضها الآخر بأشكال الطيور والبط، في حين تظل أنواع أخرى سوداء بالكامل مع حواف ملونة ونقوش من خيوط ذهبية. تتنوع استخدامات هذه المناديل؛ فالنساء والأطفال يستعملنها لتغطية رؤوسهن بطرق مختلفة، في حين يربط بها الرجال الحايك ويلفونها من الأمام بحيث لا تعيق حركتهم في المشي. أما الفقراء الذين لا يستطيعون ارتداء العمَامَة، فيكتفون بلف منديل حول رؤوسهم تاركين قمة الرأس مكشوفة. تستخدم ربات المنازل المناديل الكبيرة لربط الحزم وتغطية الأطباق. ولكن، إذا وجب القول، فإن الاستخدام المعتاد لهذه القطعة الصغيرة من القطن أو الحرير أو الكَتَّان والتي تعدّ ضرورة لا غنى عنها عندنا، غير شائع بين هؤلاء الناس، أو يُستخدم بدرجة محدودة للغاية. بالقرب من محل المناديل، يوجد محل بقالة يعرض جِرارًا من الزيت والزبدة بدرجات متفاوتة من التعفن – وهي جرار قد تناسب بامتياز مشهدًا من قصص علي بابا! - بالإضافة إلى شدّات من البصل والثوم والفلفل الأحمر الرائع، كلها معلقة على الجدران – إلى جانب العدس والسّميد المرتّبين في صناديق وسلال. قد يكون الدكان التالي محلّا للسّرج، حيث تتكدس أكوام

[38] الأقمشة المطبوع عليها تصاميم.

[39] نوع من القماش الشفاف، رقيق ومشبك يسمى بالفرنسية : gaze أو بالإنجليزية :gauze

من الجلود فوق الرفوف، ويعمل التجار بجدّ، ويطرّزون بمهارةٍ وذوق رفيع ظهور وأطراف أغطية السّرُوج الحمراء، إلى جانب الأكياس والمحافظ، وذلك باستخدام خيوط ذهبية، فضية وحريرية. نادرًا ما تحتوي المَحَالّ على طابق ثانٍ. أما في ساحات الأسواق الكبرى، المظللة بالأشجار الباسقة، يجتمع التجار لعرض بضائعهم من الملابس المستعملة، الحديد القديم، الأسلحة النارية، الفواكه والأواني الفخارية. ومن حولهم يتراقص الأطفال بملابسهم الزاهية كأنهم طيورٌ استوائية قد أُطلقت من أقفاصها، في حين يتجمع الكسالى من الرجال في المقاهي، يراقبون مباريات الدّاما.

وفي الجامع الكبير الذي يتوسط المدينة، اجتمع خلق كثير عند انتصاف النهار لأداء فريضة الصلاة. كان الحوض المستدير في وسط الساحة الرحبة المرصوفة بألواح الأونيكس الجزائري والآجُر المشيد، مقصدًا للمصلين الصامتين، الذين يقبلون عليه لإتمام وضوئهم، فيسمع صوت الماء المتدفق ورنين الثِّقْل المتكرر. وقد أُذن لي أن أستمر في دراساتي داخل السّاحة بينما كانت الصلاة قائمة. انتظم المسلمون في صفوف متراصّة كالجند، يركعون ثم يسجدون، ويلامسون الأرض بجباههم، ثم ينهضون قانتين، يعيدون الركوع والسجود على نظامٍ واحدٍ في صفوف تملأ أرجاء المسجد من طرف إلى طرف، لا يقطع انتظامها إلا الأعمدة المربعة، التي يزيد عددها على السبعين عمودًا. وفي هذه الأثناء، كان يتردد صوت مهيب يتألف من ستة عشر إلى عشرين نغمة، يكرره الحاضرون جميعًا على نسق واحد وفي توقيت منتظم، وما عدا ذلك فالمسجد يغشاه سكون مُطْبق، لا يُسمع فيه سوى الصَّوتُ الجهيرُ للمفتي وهو يتلو آيات القرآن[40].

[40] رسم الكاتب لوحتين في الجامع الكبير، لم يضعها في محتوى الكتاب، عُرضت لاحقًا في عدة معارض وتُباع حاليًا في المزاد العلني. أُضيفت مع ملحقات الفصل.

وعلى الجانب الآخر من الساحة العامة المركزية، توجد مدرسة صغيرة[41] تجمع في أروقتها ما يزيد على الستين صبيًا، كأنها بابل مصغّرة[42] تعج بالأصوات. ويُعد التعليم الفكري للأطفال في هذه المدرسة محدودًا للغاية، ولا الآباء مكترثين له، فهم يعلمون أبناءهم منذ نعومة أظفارهم أن يرددوا: ((أشهد أن محمدًا رسول الله))، وأن يكرهوا المسيحيين. أما بقية تعليمهم، فيقتصر على اكتساب بعض القواعد الأولية في الحساب، وحفظ ما أمكن من القرآن. [والجدير بالذكر أننا نتحدث هنا عن المدارس العربية البحتة، وليس تلك التي بدأت تتفرنس. ومن الأمثلة على ذلك، الليسيوم[43] أحد أكبر البنايات في الجزائر، حيث يتلقى نحو ثمانمائة طالب من المسيحيين واليهود والمسلمين تعليمهم معًا تحت سقف واحد.]

أما الأستاذ العجوز لهذه المدرسة المطلة على الساحة العامة، فإنه يستعين بمجموعة من المساعدين من مختلف الأعمار على رعاية التلاميذ الصغار. كان المكان يعج بأصوات عالية وصخب مستمر، حيث تتداخل أصوات الكبار والصغار وهم يحاولون أن يعلو كل منهم على الآخر. وترتفع أصواتهم أكثر فأكثر كلما التقطوا أنفاسهم، ليعيدوا ما حفظوه بسرعةٍ تجعل من المستحيل تمييز كلمة عن كلمة أخرى. وفي الحقيقة كنت خلال إقامتي هناك أسأل خادمي الصغير، بين الحين والآخر عما يُتلى من نصوص، فلم يكن يجيب سوى بهز كتفيه دلالةً على جهله: "جونوسي با موسيو، كوني با صا، موا " (لا أعرف سيدي، ليس لي علم بهذا). ترتفع أصوات الصبيان في المدرسة وهم يرددون بأعلى ما يستطيعون: الله —— إله-الله-اشبه-محمد-والي-جولي-هولي، كان ذلك بأشدّ سرعة وكأنهم يسابقون الزمن، حتى ليبلغ التكرار ألف مرة في الدقيقة، مما يعطيك

[41] يشير إلى مسجد أبي الحسن التنسي (متحف الخط الإسلامي حاليًا)، قرب الجامع الكبير، طالع ملحقات الفصل.

[42] يقارن الكاتب المدرسة بشكل مجازي ببرج بابل المذكور في التوراة، حيث كانت هناك لغات متعددة تُتحدث، في هذا السياق، "بابل مصغرة" تعني مكانًا يعمه الضجيج أو الفوضى.

[43] مؤسسة دراسية، باللاتينية : **Lyceum**.

أيها القارئ فكرة صغيرة عما كانوا يتلفظون به. وإذا أضفت إلى ذلك كثرة عددهم وانغماس الجميع في هذا الصخب، اقتربت من إدراك حقيقة هذا المشهد. كان الطلبة يُحَثّون على رفع أصواتهم إلى أقصى حد، حتى تقوى صدورهم، وهي ضرورة لمن يتمنى أن يصبح يومًا مؤذنًا ينادي للصلاة من أعلى المآذن. وأما من كان مقدرًا له أن يتعلم حرفةً، فقد كان يُلقَّن الكتابة وقليلًا من الحساب العملي النافع. ولتخفيف وطأة الرتابة التي تخيم على هذه التلاوات، كان الصبي يُؤخذ أحيانًا ويُمد على ركبتي المعلم العجوز، الذي يجلس متربعًا كالإسكافي، ممسكًا بكاحلي الصبي المخطئ، فينهال بعصا خفيفة على أخمص قدميه، — صورة مخففة من عقوبة الفلقة.

ملحقات الفصل

لوحة تُصَوّر لحظة وضوء المصلين في الجامع الكبير - من إنجاز الكاتب



لوحة تُصَوّر لحظة مكان الوضوء وصحن الجامع الكبير - من إنجاز الكاتب

مسجد أبي الحسن التنسي عام 1885، المدرسة القرانية التي كان يصفها - جوف نويل

رسمة تُصَوّر تعليم الأطفال في مدرسة مسجد أبو الحسن التنسي - بانوراما ترانس أطلانتيك، باريس



مدرسة مسجد أبو الحسن التنسي، لوحة فنية للرسام النمساوي رودولف إرنست

بخصوص الأطفال

أدوات وكتب التلميذ في المدرسة العربية لا تكلف أهله سوى نفقات يسيرة، فهي لا تعدو أن تكون مجرد لوح أردواز[44] ، لكن في الواقع هو لوح من الخشب الصلب، وهو وسيلة التعلم الأساسية. يُصقل سطحه بالطين الأبيض الناعم المخلوط بالماء، يُفرد بالأصابع حتى يصبح السطح أملس كالمرايا. فإذا امتلأ اللوح على جانبيه بإملاءات من القرآن مكتوبة بالحبر وقلم القصب[45]، وحفظها الصبي عن ظهر قلب، غُسل وأعيد طلاءه بالطين مرة أخرى. وكان الخطأ يُصحح بتمرير إصبع مبلل على موضعه، فلا يبقى له أثر. الصبي العربي لا يخلو من شقاوة أقرانه، فكان يكسر ويُصلح، يمضغ ويُرقِّع، حتى يصبح لوحه خليطًا من قطع الخشب المثبتة بالصمغ والمسامير، مكسوة بأجزاء من الصفيح والنحاس، مدعمة بزوايا خشبية. وتتكفل طبقة الطين بعدها بسدّ الشقوق والفجوات. على الحائط، هناك لوحة كبيرة معلقة ذو لون أسود؛ وعلى الحصير الأرضي تتناثر البرانس والأحذية، لكن لا توجد كتبٌ ابتدائية، أو قواعد لغوية ،أو كتب جغرافيا ،أو أي أدوات أخرى ملطخة بالحبر، مثل تلك التي تتناثر على مقاعد ومكاتب مدارسنا. في أرجاء الغرفة تتفرق مجموعات من الأولاد الصغار ذوي العيون السوداء البرّاقة، أعمارهم تتراوح بين ثلاث إلى خمس سنوات، ومجموعات أخرى تضم طلابًا من فئات عمرية مختلفة، وشباب في السابعة عشر والثامنة عشر من العمر، وكلهم يعتمرون الطرابيش الحمراء المزينة بشُرّابات كبيرة زرقاء اللون، ويرتدون المعاطف والبرانس بجميع الألوان، تُضفي عليها أشعة الشمس المتسللة من النوافذ المزخرفة

[44] في النص الأصلي بالإنجليزية الكاتب استعمل كلمة **Slate**، بالفرنسية: **Ardoise**، وهو نوع من أنواع الصخور المتحولة، التي تكونت من الطين أو الرماد البركاني، لكنها في الحقيقة كما أشار هي مجرد لوحة خشبية مطلية بالطين.

[45] باللهجة العامّية، القْلَمْ والدّْوايَة.

والزجاج الملون ألقًا وسحرًا، لتبدو الغرفة وكأنها مِشكال مفعم بالألوان والحياة. حول المكان تنتشر الحوائط المغطاة بالجص الأبيض، وقد تلطخت بالبقع والأوساخ بفعل الأكتاف والأيدي والرؤوس التي تتكئ عليها. وفوق ذلك، تتزين الجدران بزخارف عربية بديعة من الجص، حيث بقيت الداخلية منها، رغم تدهور حالها، على حالها دون أن تطالها يد الترميم، مما جعلها إحدى أروع نماذج الفن الموريسكي. وكان البناء في الأصل مسجدًا صغيرًا، يعلوه سقف خشبي مزخرف وملون، على وشك الانهيار، محمولًا على أقواس وأعمدة من الأونيكس.



طفلة تلمسانية، من رسم الكاتب

ينما كنا نجوب شوارع المدينة، مررنا بمحال الصاغة –وهي زوايا صغيرة مظلمة يعكف فيها الحرفيون على تشكيل خلاخل، دبابيس للحايك وأساور فضية– بأدوات بدائية لا تختلف عن أدوات الحدّاد؛ أفرانٌ ومنفاخٌ وسندانٌ من الحديد. وكان بين تلك المحال صبي يهودي صغير، قد ظهرت عليه ملامح الحرفة التي سيرثها عن أبيه، وقد ألحّ عليّ بشرح مفصل ودعوات رجاء أن أشتري شيئًا من مصنوعاته، وهو يقرع قطع الحلي أمام ناظريّ كي يجذب انتباهي.

ولا يسعني إلا أن أعود للحديث عن الأطفال، فقد كانت هذه الشوارع تعج بالتلمسانيين الصغار الذين لم يغادروا قط، وربما لن يغادروا يومًا، مدينتهم الأم. الصبيان عند ركوضهم في الشوارع، لا يكسو أجسادهم سوى قميص أبيض طويل وسترة زرقاء داكنة. البنات بدورهن، لا تضاهيهن في جمالهن مخلوقات أخرى في العالم . يراهن الغريب في كل مكان، فيجدهن زينة المدينة وعنوانها البارز، لا سيما الفنان الذي يراهن كأروع ما يثير اهتمامه. تراهن في طريقهن إلى المخبز يحملن أرغفة غير مخبوزة موضوعة على ألواح، مرفوعة فوق رؤوسهن، وأخريات يحملن دلاءً صغيرة مطلية بالنحاس ممتلئة بالحليب؛ منهن من تسير وحدها، ومنهن من تمضي في جماعات، ولكنهن دائمًا ساحرات، لا لجمالهن وحده، بل أيضًا لتنوع أزيائهن وزهو ألوانها؛ ينسبن بين الظلال وأشعة الشمس بخفة كأنهن أطياف تتراقص مع النور، ثم يختفين في رمشة عين خلف زاوية أو عبر بوابة مواربة. كُنّ يرتدين أولًا، قميصًا أبيض بأكمام شفافة، تعلوه قندورة أو قميص بلا أكمام، يمتد قرابة الكاحلين، يُنسج غالبًا من قماش الكاليكو المزركش بألوان زاهية، تزينه دوائر وخطوط، وأشكال الطيور، والأغصان، والأوراق. وأحيانًا تُفصّل القندورة من المُوَشَّى الفاخر[46] أو من الحرير الخفيف، وفوقها تُرتدى غالبا قندورة ثانية من التُول[47] المُزخرف، والتي لا تعدو كونها مجرد ستارة شفافة بيضاء من تلك المستخدمة في الستائر العادية. كانت الأقمشة تنسدل فضفاضة

[46] يسمى أيضا البروكار.

[47] التّول هو قماش شفاف يسمى بالفرنسية والإنجليزية **Tulle**.

فتتمايل بخفة مع خطوات الفتيات. يزين خصورهن حزام عريض وتعلو أكتافهن صِّدارات[48] صغيرة. وعلى رؤوسهن طاقية مخروطية الشكل تُصنع غالبًا من المخمل[49] القرمزي، وتُزينها تصاميم تتراوح بين البساطة والتعقيد، مطرزة بخيوط ذهبية. يرتدي البنات والفتيات غير المتزوجات الطاقية بحزام تحت الذقن؛ بينما تربطها النساء المتزوجات بواسطة منديل ملون بالإضافة إلى الحزام. أما شعرهن، فقد كان مقصوصًا بشكل مستقيم فوق الحاجبين مباشرة، ومُضفرًا على طول الظهر. وكانت عملية صبغه بلون بني مائل إلى لون النبيذ تستغرق أيامًا عدة، يظهرن خلالها في حالة تخفي جمالهن المعتاد.

تحضّر الحناء حتى تغدو عجينة لينة ويطلى به الرأس كاملا، بقدر ما يمكن لخصلات الشعر المربوطة أن تغمر، فتتشبع بما أمكنها حمله وتزيد على ذلك، حيث تنساب على الرقبة والخدين وحتى داخل الأذنين. تعطي هذه العملية الرأس مظهرا يشبه الشمع، مع الشعر المرتب في حزم متساوية. كما تُصبغ راحة اليدين والقدمين وكل الأصابع. وغابت عن ناظري بعض الأيام، جارتي الصغيرة التي كانت تقطن غير بعيد عن نافذة فندقي، ثم ما لبثت أن عثرت عليها جالسة على عتبة دارها، والكآبة تلفّها برداء ثقيل، وقد تورّم ساعدها وكفّها تورّمًا شديدًا. ويبدو أنّها كانت تخضع لعملية موجعة من التزيين، يُنقش أثناءها جسدها برموز من معينات ونجوم وخطوط بأدوات من الإبر، ثم تُصبغ بحبر هندي أو ما يُشابهه. ولإتمام زينتها، غُطّي رأسها بالحنّاء خلال هذه العملية. فلما أبصرتها على حالها تلك، توجّهت إليها بكلمات تنضح استعطافًا: " آه يا صغيرتي، لتكوني جميلة، عليك أن تعاني." فنقل مساعدي عبارتي إلى العربية في الحال. ولم يكن بكعبيها علة، رغم تلونهما بلون بنيّ قاتم كأنه الحرق، فما إنْ فرغ الصبي من ترجمة كلماتي حتى انطلقت الطفلة نحو دارها بخفّة

[48] الصِّدَار، قطعة مصنوعة من قماش سميك تغطي الصدر، تمتد من الخصر حتى الكتف، بالفرنسية : **Corselet**.

[49] المخمل أو القطيفة نوع من القماش، يسمى بالفرنسية **Velour** وبالإنجليزية **Velvet**.

الطيف، متناسية أوجاع ذراعها المتورّم الذي كانت تواسيه بلطفٍ لحظات قليلة قبل ذلك.

بومدين

على بعد حوالي ميل شرق تلمسان، تعتلي قرية بومدين منحدرا مرتفعا. كمدينة، يمكن القول إنها قد ماتت؛ إذ لا يوجد سوى مقهى واحد يمكن القول إنه يعمل بشكل ملحوظ.

في هذه القرية، يرقد المرابط القديم سيدي بومدين أو مَديان، بسلام في قبته، حيث يُعتنى بها بشكل دائم، ويُزار باستمرار. يُشَاهدُ الحارس دائم الحركة، ذهابًا وإيابًا مع مفاتيحه، ليفتح باب الضريح للحجاج والزوار، ممن يقدمون له الإكراميات. ويغطي الحرير الضريح وتُزينه الأعلام والنُّذور والشموع بالإضافة الى بيض النعام، إلى جانب النقوش الموضوعة تحت الزجاج. يُفضي الطريق إلى الفناء المؤدي إلى الضريح عبر حوالي خمس عشر درجة تنحدر من فناء خارجي ضيق آخر. وفي هذا المكان، تبرز أربع أعمدة جميلة من العقيق، بالإضافة إلى بئر قديم مزين بالرخام، يثير اهتمام الزائرين. وقد استُخدم هذا البئر للحصول على الماء «المقدس» على مدار ستة قرون متواصلة، إذ يُنزل دلوين مربوطين بسلسلة طويلة لاستخراج الماء، ما تسبب في ظهور أخاديد عميقة في الرخام بعمق خمس عشرة بوصة بفعل الزمن وكثرة الاستخدام. في الماضي، كانت أرضية المكان مغطاة ببلاطات صغيرة بألوانٍ مختلفة: الأخضر والبني والأصفر والأبيض، وكل منها يحمل أنماطًا بارزة ومعقدة. لكن مع مرور الوقت، أقدم صائدو الهدايا التذكارية على حفر تلك البلاطات وأخذ الكثير منها، ما جعل الحارس اليوم مسؤولًا أمام الحكومة الفرنسية عن كل قطعة متبقية.

أثناء قيامي بدراساتي في هذا المكان الهادئ والساحر، أتيحت لي فرصة نادرة لمراقبة النساء اللواتي أتين لحرق البخور عند باب القبة، والتضرع إلى سيدي بومدين طلبًا للمساعدة والبركة، (كما كن يتوجهن بالدعاء إلى النبي، مناديات إياه سيدي محمد).

نزلن الدرج وهن ما زلن محجبات، ولكن عند رؤيتهن لأجنبي (رومي) يقوم بدراساته، أرخين الحايك الذي كن يمسكنه بإحكام، بحيث لا يُظهر سوى عين واحدة من خلال فتحة مثلثة صغيرة. لا يرتدين الحجاب بنفس الطريقة المعتادة في مدينة الجزائر. ومن الملاحظة المثيرة للاهتمام أن زي النساء والأطفال التلمسانين يكاد يكون مطابقًا تمامًا للزي الذي ترتديه اليهود في قسنطينة والتي تبعد مسافة كبيرة عن الجزائر، حيث يختلف الزي في المدينة في بعض التفاصيل ويتشابه في أخرى. كما أن لباس نساء تلمسان يشبه إلى حد كبير لباس المغرب، وهذا ليس بالأمر المفاجئ، نظرًا لأن حدود ذلك البلد تبعد حوالي خمسة وأربعين ميلاً فقط.

يقع مقابل ضريح سيدي بومدين المسجد الذي يحمل اسمه، وهو تحفة معمارية تمثل العمارة الموريسكية[50] الأصلية، ولا يزال في حالة حفظ شبه مثالية، حتى إنه يبعث في النفس شعورًا وكأنك تقف بقدم في قصر الحمراء وقدم أخرى في مسجد بومدين. هناك درج يؤدي إلى هذا المسجد مكوّن من اثنتي عشرة درْجة تنتهي بأبواب ضخمة مُزينة بلوحات برونزية نقشت عليها تصاميم هندسية غاية في الإبداع، وهي تحفة بحد ذاتها. تُثبَّت الأبواب من الداخل بواسطة قضبان برونزية يبلغ طولها قرابة ثلاثة أقدام وقطرها حوالي ثلاث بوصات، حيث يتم إدخال القضيب العمودي من خلال فتحة في القضيب الأفقي. ساحات المسجد المكسوة بالبلاط، هي مكان لعب كائناتنا الصغيرة المفضلة، الأطفال. وبعدما عملت في هذه البقعة المقدسة لعدة أيام، نجحت أخيرا في إقناع بعض الأطفال بالوقوف كنماذج لي. كانت البداية صعبة، حيث أبدى الأطفال، بأزيائهم الأنيقة، ترددًا كبيرًا، لكن سرعان ما بدأوا بالمزاح، يتبادلون ملابسهم مع أصدقائهم الذين أنهكهم الفقر ودفعتهم الحاجة، لقبول الوقوف كنماذج مقابل بعض النقود، خلافًا على تحفظاتهم الموروثة ضد تصويرهم.

[50] عمارة أندلسية مغاربية

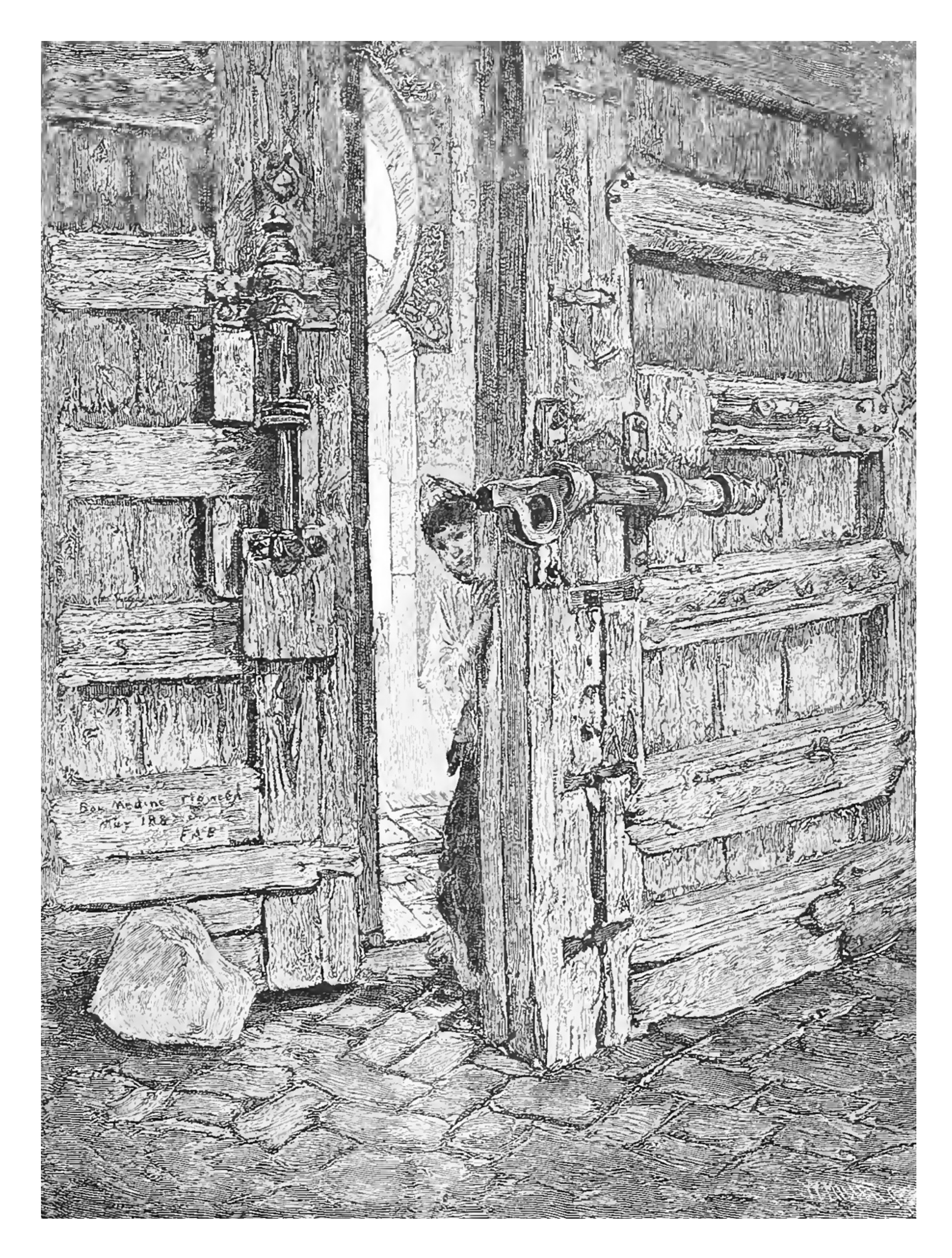
تجمّع حولي نحو اثني عشر طفلًا، رغم أنني شعرت وكأنهم ثلاثمئة من شدة الفوضى التي أحدثوها. إحدى الفتيات التي كانت ترتدي قندورة طويلة جدًا وأخرى قصيرة جدًا وصدّارة ضيقة جدا تحت الابط لدرجة أنها كادت أن ترفعها عن الأرض، بدأت بعد خمس دقائق فقط من وقوفها تسألني إن كنت قد انتهيت من الرسم، مُصرةً على أنها تستحق فرنكًا (قطعة نقدية) عن كل خمس دقائق إضافية تتجاوز الاتفاق. ولم تكتفِ بهذا، بل لقيت دعمًا من أصدقائها الذين هددوها بشد شعرها إذا بقيت دقيقة أخرى، بل وحتى بإفساد رسومي إذا تأخرت في إنهاء عملي. وسط هذه الفوضى العارمة، حاولت مواصلة العمل بصعوبة بالغة، بينما كان شعري واقفا وأعصابي على وشك الانهيار؛ حتى لو تخيلنا مشهد حديقة حيوانات، تلتهمها النيران لم تكن لتوفر إثارة أكبر من هذه. وبعد نصف ساعة من المعاناة، رأيت أنه لا مفرّ لي سوى أن أقدم قطعة نقدية للأكبر سنًا من المجموعة ليأمر الآخرين بالمغادرة وإخلاء المسجد. وما إن فعلت ذلك حتى وجدت نفسي وحيدًا في هدوء أخير، أكملت فيه رسم اللوحة دون أي إزعاج[51].

بطبيعة الحال، كان الميلود غارقًا في النوم في المقهى عندما كنت بأمس الحاجة إليه. كان هذا اليوم حافلًا بالأحداث؛ فمنذ وجبة الفطور الأولى، قُدّر لي أن أصوم جزئيًا حتى المساء، كما سيتضح لاحقًا. فقد جُهزت وجبتي الأساسية لوقت الظهيرة ووُضعت في سلة كان الميلود قد تكفل بحملها. بينما كنت أواصل دراساتي صباحًا في المسجد، وكان مرشدي الجدير بالثقة يغفو في زاوية، وُضعت هذه السلة خارج باب المسجد الذي أغلقته اتقاءً لتيارات الهواء البارد. لما أحسست أن الجوع قد بدأ يُعيقني عن العمل، أيقظت الميلود وطلبت منه الفطور. فتحنا باب المسجد الثقيل، فإذا بنا نُفاجأ بقطّة مسكينة تهرول على الدرج حاملةً ما تبقى من دجاجتنا بين أسنانها، فلم تدع لنا شيئًا سوى زجاجة النبيذ الصغيرة وبعض البيض الذي تدحرج خلفها إلى أسفل الدرج. كان

[51] اللوحة التي رسمها في العباد، مرفقة مع ملحقات الفصل.

إفطارنا قد طاله الخراب، ولم يبقَ لنا منه سوى الفتات، فجمعنا ما تبقى من البيض، ومع الخبز والنبيذ الذي نعمت به لوحدي!، الشكر يعود للميلود الذي يحترم تعاليم دينه، حاولنا سدّ رمقنا بما تيسر . توجه الميلود إلى المقهى القريب ليأتي لي بفنجان قهوة ساخنة. وما إن ارتشفت منه حتى بدا لي في ذلك الوقت أنه أفضل ما ذقت يومًا. وخلال تناولنا الإفطار في الساحة، طلب مني رفيقي المسلم[52] ألا تسقط قطرة واحدة من النبيذ على أرض المسجد، حيث إن ذلك يُعد نجاسة تُسيء إلى حرمة المكان، ويسيء للنبي. أجبته إلى طلبه بكل امتنان، إذ كنت أرى في ذلك احترامًا لخصوصيته ومعتقداته الدينية.

[52] يقصد الميلود.



أبواب مسجد سيدي بومدين

سمعت من صديقاتي أنهن عند زيارتهن للمسجد والضريح، خلعن أحذيتهن وجواربهن عند الباب مراعاةً واحترامًا لعقيدة الحارس، الذي سُرّ بهذا التصرف سرورًا

عظيمًا لدرجة أنه دعاهن لزيارة منزله المتاخم[53] للمسجد، حيث رحب بهن، ودعاهن للجلوس مع عائلته وتناول القهوة. وكان ذلك في يوم بارد وممطر تطلّب منهن عبور الفناء الخارجي المكسو بالبلاط وتسلق السلالم وتجاوز الفناءات الداخلية قبل الوصول إلى المأوى المنشود والحصير المفترش بالداخل؛ لكن بالرغم من هذا، كانت هذه البادرة دليلًا على لطف الحارس وكرم استقباله، وهو أمر جعلهن ممتنات للغاية.

قادني نجمي المحظوظ[54] ذا صباح إلى المسجد، فكان لي من الحظوة ما مكّنني من الدخول، إذ كانت نساء البلدة مشغولات بأمرهن في الغسيل والتنظيفٍ عام، يحملن دلاء الماء من النافورة المركزية، ويستعملن مكانس قصيرة في فرك الأرضيات. كنّ حافيات الأقدام، مرتدياتٍ ثيابًا، كنت قد وصفتها من قبل في الصفحات السابقة; قد شُدّت إلى ما فوق الركب، وأكمامًا عُقدت خلف الظهر بين الكتفين، وقد تزينّ بحلي من مختلف الأنواع. لكن في الأسبوع التالي، واجه نجمي صعوبة أكبر، إذ وجدني الحارس على باب المسجد وكان على وشك أن يغلقه في وجهي، غير أنني، باستخدام المفتاح الفضي[55]، الذي له تأثير عظيم في هذه البلاد، ظفرت بالإذن بالدخول. ولم يقف تأثير ذلك المفتاح عند هذا الحد، بل هيّأ لي الحظوة في حضور ذبح شاةٍ في فناء منزل الحارس الخاص. كان الفناء في وسطه نافورة مثمنة الأضلاع مليئة بالنباتات، وإلى جانبها نافورة رخامية أصغر، مزخرفة ومضلعة، يحيط بها حوض مربعة زُيّن ببلاطات مُتقنة النقش بديعة المنظر. وقد كان كل شيءٍ في غاية النظافة، يشهد على اهتمام بالغٍ بكل التفاصيل، مثلما كان حال الحارس نفسه، الذي كان يبدو في أناقةٍ تُسرّ الناظرين. أما الرجل الذي جاء بالشاة، فقد ظهر عليه أنه عربي من أهل الخيام، الذين يُوفون بنذورهم عند سيدي بومدين. فقد كان نذر أن يذبح شاةً إذا ما شفع له المرابط عند الله، فقُضي له حاجته، سواء في وفرة الحصاد أو استجابة دعاء طال

[53] المقارب.

[54] باللهجة العامية يقال قادني السَّعْد.

[55] يقصد المال، القطع النقدية.

انتظاره. هؤلاء القوم لا يعجلون في الوفاء بنذورهم، بل ينتظرون حتى يتحقق مطلبهم على الوجه الذي يرجونه، ثم يُقبلون على الوفاء. ولما تذبح الشاة، يؤخذ منها نصيب كبير للحارس، كما جرت عليه العادة، بينما يوزع الباقي على المحتاجين. اقتيدت الشاة المسكينة إلى زاوية الفناء، وهي تصدر ثغاءً يشي بما شعرت به من خوفٍ مما ينتظرها، أُوقفت عند حفرةٍ تتدفق منها مياه النافورة، حيث أصبحت صيدًا سهلًا للسكين الذي أُنهيت به حياتها. ولم يغب عني، وأنا أشهد هذا المشهد، أن المسلم نفسه لو شاء، لوضع عنقي مكان عنق الشاة فوق الماء الجاري، مؤديًا بذلك واجبًا يراه امتثالًا لتعاليم نبيهم. وكان بالقرب من درجات المسجد حوضٌ كبير من الرخام، يجري فيه الماء بلا انقطاع، وهو الموضع الذي تُنفذ فيه مثل هذه التضحيات عادةً. وعلى يسار مدخل المسجد، كانت هناك غرفة قد خُصصت لتكون مدرسة، وهي الوحيدة، كما بدا لي، في هذه القرية المهجورة[56]. كان يُؤتى إليها بالصبية الذين ساعفهم الحظ، يُلقنون فيها تعاليم الدين، فتتعالى أصوات تلاوتهم في الفناء ساعات طويلة تمتد إلى ست أو سبع ساعات يوميًا. وأما الفتيات، اللواتي لم يكنّ يحظين بالتعليم، فقد كن يقضين أيامهن في اللعب، غير أنهن لم يغفلن أبدًا عن طلب البركة، إذ كانت إحداهن، من حين لآخر، تهرع إلى الباب المؤدي إلى ضريح الولي، تُمسك بالمزلاج وتقرعه بالمطرقة الحديدية، مرفقة ذلك بنداءات رجاءية: "يا سيدي! يا سيدي!"، ثم تعود مسرعةً إلى لعبها وكأنها أتمت واجبها. وقد كان قُربي منهنّ خلال الرسم يجعل معداتي وأدواتي مركزًا يدُرن حوله ويعبثن بجواره.

في وقت الظهيرة، يتولى الحارس الأمين للمسجد بنفسه رفع الأذان من أعلى المئذنة. وكانت البلاطات الزرقاء التي تزين المنارة وأسقف المسجد تلمع تحت أشعة شمس، في حين كان الدخان الأزرق يتصاعد من بيوت القرية. ومن ساحات المنازل، كنّا نرى نساءً يحضرن الحساء أو يغلين القهوة. وكثيرًا ما كنا نجلس تحت شجرة على سفح

[56] يقصد العباد.

التل، نطل على أسطح القرية ومنازلها المتناثرة، نستمتع بمشهد الحياة البسيطة. وكان صوت المؤذن، الذي دُرّب ليتردد صداه لمسافات بعيدة، يخترق الصمت مناديًا: "الله! إله!" موجهًا صوته نحو أركان الأرض الأربعة. وصوته يمتد مع كل مقطع، يعلو شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى ذروته، ثم ينقطع فجأة مع آخر أنفاسه، وكأن هذا الصمت العميق المحيط بنا يمنح الموجات الصوتية فرصة للارتداد في السهل الممتد أسفل القرية، حيث كانت الشمس تُلقي بضيائها المترامية على الأرض حتى تلامس مياه البحر الأبيض المتوسط خلف التلال البعيدة.

ملحقات الفصل



فتاة تلمسانية في أعالي قربة العباد - لوحة من إنجاز الكاتب



قربة سيدي بومدين في أعالي العباد، عام 1885 - جوف نويل

ميلود

عند عودتنا إلى تلمسان، كنا نمر يوميًا تقريبًا عبر المقبرة[57]، حيث كانت النساء يتجمعن متكئات على بعضهن حول قبر جديد، يتحلقن بحزن ويتهامسن فيما بينهن. كانت شواهد القبور الجديدة تتكون من لوحين ؛ لوح عند الرأس وآخر عند القدمين، ذو قمم مستديرة، وعلى أسطحها المسطحة، كانت تُنقش كتابات بارزة ملوّنة بألوان زاهية.

وخلال مسيرنا، كنت أتحدث مع الميلود عن أحداث اليوم، فأخذ يروي لي بعضًا من آرائه الغريبة حول مواضيع مختلفة، ويحدثّني عن تلك السّحالي الكبيرة (البلاّم) التي كانت تدب عبر طريقنا، زاعماً أنها هي التي تلتهم جثث الموتى. فقلت له: "يا الميلود، ما الذي يمنعكم من تعليم الفتيات؟" فأجابني وقد علت وجهه علامات الاستنكار: "الفتيات؟ وما حاجتنا إلى تعليمهن؟! لا فائدة منهن سوى القيام بأعمال البيت وغسل أرضيات المساجد، وانتظار الزواج. كل المصائب التي تقع في هذا العالم سببها النساء؛ فهن أصل كل شرّ، وإذا ما ملّ الرجل زوجته، فمن حقه أن يهجرها دون تردد". فلما سمع ردي عليه بقولي: "لكن يا الميلود، قد لا تكون مطلعا على وجهة نظرنا! عليك القيام برحلة إلى بلداننا الشمالية، حيث ستجد أنني لست الوحيد الذي يدافع عن حقوق هذا الجنس اللطيف" توقف عن السير، وأشار إلى جبهته بإصبعه قائلاً: "يا سيدي، هذا أمر لا يمكنني فهمه، تبدو رجلًا عاقلًا تعرف الكثير من الأشياء وتعرف كيف تزن الأمور وتحكم عليها بمنطلق حكيم، مثلي تماما، لكن فيما يتعلق بالنساء، لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنك التحدث بهذه الطريقة. أليس كذلك؟"

[57] يشير إلى مقبرة الشيخ السنوسي.

أردت تغيير الموضوع، فسألته عن معطفي، وأخبرته أن النسائم الباردة بدأت تعانق أجواء هذا المساء. وأنه من الحكمة أن أرتدي معطفي تجنبًا للمرض، خصوصا وأننا نمشي بسرعة. رأى في كلامي تفكيرا منطقيا، وشعرت بالإطراء عندما قال لي: "آه، هذا بالضبط ما كنت سأخبرك بفعله، أن ترتدي معطفك. هل فكرت في ذلك بنفسك؟ لديك بالفعل بعض الأفكار الجيدة. برافو!

ولا تعجب، أيها القارئ، بعد المثال السابق، إذا علمت أنّ الميلود كان مرشدًا جيدًا إلى الطُّرق المختصرة المؤدية إلى المعالم المهمة، ولكنه يفتقر إلى المعرفة التاريخية. فبينما كنا نسلك طريقًا غير مباشر[58] عائدين إلى المنزل، توقفنا عند أنقاض مسجد قريب من الأسوار القديمة التي غطتها الأعشاب البرية، الحشائش والشجيرات. هناك، سألته قائلًا: "يا الميلود بن محمد بن كوجهباس بن الإسكندر الأكبر[59]، كيف وصلت تلك الأحجار الركنية التي على اليسار، وهذا الحجر الكبير في المنتصف الذي يحمل نقوشًا رومانية، إلى بناء هذه المئذنة الجميلة التي شيدها ملوك تلمسان[60] الموريّون؟" فأجابني الميلود مبتسمًا: "آه، سيدي، هل ترى أصدقائي هناك" (مشيرًا إلى بعض العمال الذين كانوا يحفرون في المكان)، انهم يقومون بالتنقيب عن الطوب وقطع التماثيل والأعمدة والأحجار وما يشابه ذلك. ولكن، أحّم! سيدي، فقط افتح دليلك السياحي، قسم تلمسان، أطلال أقادير، وسوف تعرف كل شيء عنها.

[58] استخدم الكاتب المصطلح الإنجليزي Roundabout، والذي يُترجم حرفيًا بالفرنسية إلى Round-point. ومع ذلك، في هذا السياق النصي، يعبر عن اتخاذ طريق غير مباشر أو مسار أطول نحو المنزل، ربما لاستكشاف معالم إضافية.

[59] سأله بطريقة هزلية تهكمية.

[60] المئذنة من تشيد ملوك بني عبد الواد (الدولة الزيانية).

مراسيم حفل الزفاف

ذكّرني الميلود بأن هناك مَوكبيْ زفاف سيجريان في تلمسان هذه الليلة، ورأى أن نؤجل زيارة الآثار الرومانية إلى يوم آخر، فاقترح أن نتناول العشاء أولًا ثم نلتقي عند المقهى في البلاص[61] مباشرةً بعد ذلك. كانت الاحتفالات مرتقبة أن تبدأ بحلول الظلام، حتى تتمكن المشاعل من إضاءة الأجواء[62]. كان الميلود، بما له من تجربة سابقة في مثل هذه الأمور، قد شرح لي كيف تنظم حفلات الزفاف وعقد قران المتزوجين وفق العادات المتبعة. تبدأ المفاوضات بمحادثة أولية تجريها الجدات من جهة الأب للعريس والعروس، في لقاء غير رسمي يُعقد لتحديد مدى مناسبة الزواج. وقد يحرص هؤلاء النسوة على العمل وفق الحكمة القائلة: "الليل يجلب المشورة". فيتركن القرارات الكبرى للصباح بعد تفكير متأنٍ. فإذا لم يجدن ما يدعو للاعتراض، تولّى الآباء المفاوضات لتحديد المهر الذي يُدفع للعروس؛ وهو مبلغ يتفاوت حسب المكانة الاجتماعية والثروة التي تتمتع بها العائلتين. وقد يحدث أن تكون العروس يتيمة وذات إرث كبير، فتُتاح لها حرية اختيار شريك حياتها وفق رغبتها وشروطها الخاصة، ولكن في غالب الأحيان، يكون الوالدين هم أصحاب القرار، حيث يختارون العريس والعروس بأنفسهم. أحيانًا، لا يكون الشاب قد رأى زوجته المستقبلية من قبل، وإن كان من الشائع أن يكونا أصدقاء في الطفولة إلى أن تبلغ الفتاة سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وحينها تُحجب عن الأنظار بارتداء الحجاب، وفق التقاليد المرعية.

وفي مدينة الجزائر، يمكن أن ترى الفتيات من العائلات المحترمة يرتدين الحجاب في سن مبكرة قد تصل إلى ست أو ثماني سنوات. ومع ذلك، تظل للفتاة ميزة على

[61] الساحة العامة للمدينة.

[62] زودت تلمسان بالطاقة الكهربائية عام 1895 أي بضعة سنوات بعد رحلة الكاتب

الشاب، حيث تستطيع من خلال الفتحة المثلثة الصغيرة في الحايك أن تُلقي نظرة على زوجها المرتقب، ولو بعين واحدة. أما مراسم الزواج، فتُقام في أي وقت من النهار أو المساء؛ بحسب ظروف العائلة وأحوالها. وغالبًا ما يختار التاجر إقامة الحفلة مساءً، حيث تتيح له أوقات العمل ذلك، في حين يطيل أصحاب المال مدة الاحتفالات والاستقبالات لثلاث أو أربعة أيام أخرى.

يجتمع أهل العريس وأصدقاؤه من الرجال في بيته استعدادًا لموكب الزفاف الذي يجوب أرجاء المدينة، ثم تُرافق العروس إلى بيت العريس، حيث تنتظره في إحدى الغرف الداخلية، جالسةً على سرير في وضع مستقيم وثابت، كأنها تمثال، ممسكة بمنديل مطوي بين يديها. ولمّا سألت الميلود عن أصل هذا العرف، تفسيره الوحيد كان : هذا ما جرت عليه العادة! يدخل العريس الغرفة وحيدًا، ويرفع الحجاب عن وجه عروسه للمرة الأولى، لينظر إلى وجه قد يكون غريبًا تمامًا عليه، أو ربما وجه صديقة طفولته التي عرفها في أيام مضت – وجه خطيبته التي دامت مدة خطوبتها شهرًا أو سنين – وفي تلك اللحظة، تنطلق أصوات النساء في كل مكان، من المدعوات الحاضرات في أنحاء البيت، ومن اللواتي لم يُدعَينَ لكنّهن تسللن إلى الشرفات والمنافذ المطلة، فيطلقن صيحاتهن بطريقة شبه-همجية: يويويويويويو! في تعبير عن قبولهم لهذا الزواج. ارتفعت الأصوات الصاخبة التي أشعلت أجواء الاحتفال. فعازف المزمار المحترف، وقد تورمت خدوده من كثرة النفخ والتدريب، أطلق ألحانًا حادة، في حين كانت تُقرع الطبول الكبيرة بعصي منحنية، وتُدقّ الطبول الصغيرة المزدوجة بعصي طويلة مستقيمة. وارتفعت ضربات الدفوف والدّربوكات تحت أياد متصلبة، فاختلطت كل هذه الأصوات لتخلق ضجيجًا عارمًا –وصفه بالضجيج لا يكفي لإيصال حقيقته – وفي وسط هذه الأجواء، كان الأطفال، العنصر الأكثر نشاطا، كانت أعمارهم تتراوح من

مرحلة سن الرضاعة إلى سن المشي الأول، يجوبون المكان ويمرحون بشكل عفوي متزينين في أبهى حللهم، كأنهم طيور الببغاوات والتَّدارِج[63].

ظهر العريس مرة أخرى في الفِنَاء، حيث أُجلس على نمرقة[64]، ووقف إلى جانبيه صديقان له، يمسكان بمناديل كبيرة ملونة، يلوحان بها فوق رأسه، ويمررانها بخفة على وجهه، في طقوس لا يبدو أن لها معنى واضحًا، ولم يلق ذلك اهتمامًا كبيرًا من الحاضرين. أخبرني الميلود وبنفس العبارة المقتضبة: "هذا ما جرت عليه العادة".

وبينما أنا منغمس في تلك الاحتفالات ومندهش من هذه الأجواء، وجدت نفسي ضيفًا مدعوًا، دون توقعٍ مني، حيث أُلحَّ عليّ للجلوس بين الحاضرين من أهل المدينة، ومشاركتهم في تناول طبق ضخم من الكسكس– وكان الموقف محرجًا لي، إذ كنت الغريب الوحيد في المكان، ومَحَطّ أنظار الجميع. ورغم أنني لم أشعر بالجوع، إلا أنني رأيت من الواجب أن أستجيب لدعوة المضيف الكريم، الذي أبدى لياقة بالغة وكان يجيد التحدث بالفرنسية. ولم أجد ما أرد به على حسن ضيافته إلا أن أتمنى له الخير والسعادة، وأن أمرّر علبة سجائري بين الحضور. بعد الانتهاء من الطعام، أُشعلت النرجيلة، وبدأت المياه المعطرة بماء الورد والمحفوظة في زجاجة منقوشة ومذهبة، تغلي، وذلك تحت تأثير الأنفاس المتعاقبة من أربعة أنابيب طويلة. تناوب الرجال على استنشاق دخانها، يأخذ كل واحد منهم نفسين أو ثلاثة، في جوٍ من الألفة والاحتفاء. وكما في الاحتفالات المماثلة بمدينة الجزائر، النساء يتابعن المشهد من شرفات المنازل أو الأسطح العلوية، يراقبن ما يجري في الفناء دون التقيد الكامل بالحجاب أو الحايك، حيث يقمن أحيانًا بإزالته جزئيًا عن وجوههن، بينما يُفترض بالرجال ألا يرفعوا أنظارهم إلى الأعلى على الإطلاق. وكان فضولي، رغم أنه طبيعي، قد

[63] نوع من أنواع الطيور يسمى كذلك الديك البري.

[64] وسادة كبيرة مريحة.

جلب لي التوبيخ أكثر من مرة، ما علمني قاعدة في الاحتفالات العامة هنا : النساء يأتين ليُشاهِدن، ولكن لا يُرَيْن إلاّ من قبل مَثيلاتهن.

وفي بعض المناطق من مدينة الجزائر وتونس، يستمر العمل بتقاليد غريبة عند دخول العروس إلى الغرفة. حيث يسير العريس إلى الوراء حاملًا خنجرًا، وتتقدمه العروس ممسكةً بطرف نصل الخنجر بين أصابعها. وهناك تقليد آخر أشد غرابة، حيث تُوضع العروس في موقف أشبه بالاستشهاد، فتقف منتصبة بجوار عمود في ساحة عامة، أمام أنظار الجميع، لساعتين أو أكثر، مغمضة العينين، وذراعاها ملتصقتان بجانبيها، وقدماها بالكاد ترتكزان على القاعدة الضيقة للعمود. وكثيرًا ما تنهار العروس وتفقد وعيها في أثناء هذا الاختبار.

ولنعد الآن إلى بداية الموكب الذي سبق الاحتفالات التي وصفناها للتو. في وسط الحشد، كان العريس يمتطي حصانًا أسودًا، ويتحرك ببطء، بين صفين من الأشجار العظيمة، في حين كانت تضيء المشاعل والشموع الأجواء من حوله، مرتبةً على شكل أهرام صغيرة. كانت الأطواق الخشبية المغلفة بورقٍ لامع وأشرطة ملونة، تُستخدم في إعداد هذه الزينة، ويحملها الشبان على أعمدة، يتناوبون على حملها وسط تنافسٍ بينهم للفوز بشرف المشاركة.

يقود الحصان صديقان للعريس، ماسكين بلجامه، أحدهما على يمينه والآخر على يساره، ويقوم ثالث بضرب ركبتي الحصان بعصا صغيرة ليجعله يخطو بخطوات راقصة، مانعًا إياه من التقدم بسرعة – وهو ما يثير ارتباك الحصان بلا شك. ولم يكن يُرى من العريس إلا طرف أنفه وشاربه وقدميه، إذ كان يغطي نفسه بِبَرنوسه الذي أسدل غطاء رأسه ليخفي عينيه. ولما رأيته لأول مرة، حسبته شابًا في الخامسة والعشرين من عمره، إلا أنني اكتشفت لاحقًا أنه رجل في الخامسة والأربعين، قد ضاق بحياة العزوبية وقرر الزواج متأخرًا على غير عادة العرب.

تقدم الموسيقيون في مقدمة الموكب، مُحدثين ضجيجًا مدويًا، ينسجون ألحانهم على السلم الموسيقي الصغير[65] بكل ما أوتوا من وقوة. كانت الأوركسترا تحت قيادة عازفان محترفان (هل كانا مشهورين؟)؛ أحدهما يعزف على كمان حديث، بينما الآخر يعزف بقوس على آلة تشبه الجيتار، وكانا يمسكان بكمانيهما كما يفعل العازف على التشيلو[66]. ورغم كونهما من اليهود، إلا أن العرب استعانوا بهم كونهم عازفين محترفين مأجورين.

[65] نوع من السلالم الموسيقية التي تستخدم في العديد من القطع الموسيقية. يُعتبر المفتاح أو السلم الصغير عادة أكثر حزنًا أو دراماتيكية.

[66] نوع من الكمان، يسمى كذلك الكمان الجهير، التشيلو نسبة الى تسميته الإيطالية.

أسطورة عين الحوت

في السهل، تقع قرية صغيرة تحمل اسمها من نبع ذي أسطورة مثيرة للاهتمام. عين الحوت– منبع الأسماك، بركة صغيرة مليئة الأسماك، لكنها اليوم لا تبدو كما قيل عنها في الماضي، حين كانت تُصور كونها بحيرة رومانسية. تتناقل الألسن هنا أسطورة جذابة صمدت عبر القرون، وهي تروي قصة :

الأمير جعفر، ذو الدم النبيل وابن ملك تلمسان، الذي انطلق ذات يوم في مطاردة غزالة، يلاحقها بعزمٍ وإصرار. وبينما كانت الغزالة تتسابق مع الرياح هربًا، قادته خطواتها إلى مشهدٍ لم يكن يتوقعه؛ فقد رأى الأمير عائشة، الفتاة الفاتنة وابنة شيخ القرية، وهي تستحم في ركنٍ هادئ تحت ظلال أشجار الزيتون والصفصاف البابلي، محاطةً بأزهار الدفلى التي تفجرت ألوانها بين الأبيض والوردي. أفزعت الغزالة عائشة وازداد رعبها لرؤية الأمير الذي غير وجهة مطاردته فجأة نحوها، فانطلقت هاربةً بكل ما أوتيت من قوة، متجاوزة الأشجار ومتجهة نحو المنبع. وعندما اقترب منها الأمير وكاد أن يمسك بها، ألقت بنفسها في الماء، لتحدث المفاجأة الكبرى؛ إذ تحولت الفتاة العفيفة إلى سمكة بديعة الألوان، تتلألأ بين أشعة الشمس الذهبية والفضية.

قرية ميّتة، مخفية بين أشجار الصبّار التي تتحدى شمسًا حارقة؛ لم يكن لهذه القرية من مركز جذب سوى مقهى صغير، يستظل بأوراق شجرة بلوط عتيقة، تمتد أغصانها الكبيرة لتخلق مأوى من أشعة الشمس الحارقة، تاركةً بين الفراغات بريقًا خفيفًا من الضوء يتسلل عبر الأغصان. أسفل هذا المقهى، كان مجرى مائي يغرغر في هدوء، ينساب ليروي حقول القمح المحيطة، عبر قنوات صغيرة ذات حواف طينية.



ذلك اليوم، جلسنا أنا ورفقائي في السفر مع الميلود على حصير مفروش، حيث تناولنا غداءنا، ثم طلبنا اثنا عشر فنجانا من القهوة التي لا غنى عنها، فاستقبلتها الأيادي برحابة وطيب خاطر. كان صاحب المقهى رجلاً قد خدم فرنسا بإخلاص، وحصل على أوسمة عسكرية خيّطها بفخر على الجانب الأيسر من برنوسه. لكنه دفع ثمن تلك الأوسمة بساقه التي تركها في ميدان القتال عام 1870. عاش ثلاث سنوات في باريس، لكنه لم يجد راحته إلا في العودة إلى قريته عين الحوت، التي كانت الأقرب إلى قلبه بالرغم من عزلتها وصغرها. عاد بعكازيه وأوسمته، ليعيش أيامه الأخيرة في سلام، مُكرمًا من أهل قريته الذين أحبوا قصصه التي لا تنتهي عن أيام الجُندية، وأصبح في نظرهم بطلًا محليًا، كما يقول المثل «الضفدع الكبير في البركة الصغيرة». غير أن الجو الذي غلب عليه الود

آلات موسيقية

والترحاب في البداية تغير فجأة، وأصبح البرود يسود المقهى لحظة الوداع. وذلك بسبب رفيقي في السفر ذلك اليوم، الذي كان ضابطًا بروسيًا شابًا فخورا بمنصبه وصريح إلى حد كبير، حيث أعلن بكل وضوح عن فخره بقوميته قائلًا : "أنا بروسي، ولأنني أحب السفر جئت لرؤية قريتكم." انتفض الرجل العجوز، الجندي السبايسي[67] السابق، وانتصب شامخًا، وأطبق شفتيه بإحكام، ونظر إلى الضابط بحدة لعدة ثوانٍ دون أن يرمش، ثم أدار رأسه بعيدًا، ورتب برنسه، ولفّه على كتفه الآخر في إشارة واضحة لرفضه[68]. بدا لي أنه بدأ يشك في أنّني أيضًا من نفس جنسية رفيقي، فتحولت، دون قصد مني، إلى هدفٍ لنفوره واستيائه.

كان المقهى مجاورا للحي الذي يقع فيه المسجد، وتحت ظله الديني، بناء بسيط مُبْيَّضٌ بالجير، تحيط به جدران بسيطة، لم يُعنَ بشيء فيه سوى بركن واحد حيث يرقد المرابط، في حين يغطي الغبار الكثيف والأحجار ساحة الفناء، والنافورة الجافّة التي أصبحت مأوى للعقارب وملتقى للسحالي. كانت المئذنة ترتفع بشموخ نحو السماء، وتتدرج حتى قمتها التي توجتها قبة مائلة، وزُينت زواياها الأربع ببرج صغير مثلث الشكل. وكان المؤذن، شيخًا بلغ التسعين، يصعد درجات السلم الحجري غير المنتظم بصعوبة شديدة، ولما وصل إلى فتحة صغيرة تُستخدم بصفة باب، أطل بعمامته الكبيرة أولًا، ثم أخرج يده النحيلة التي أمسكت بعصا طويلة. وقف للحظات يلتقط أنفاسه، ثم رفع صوته المبحوح مؤذنًا، بنداء بالكاد يُسمع، وكأنه يختتم رحلة طويلة من آلاف النداءات التي أطلقها من هذا المكان المتواضع، وربما كان هذا آخر نداء له.

ثم توجهنا بالسيارة إلى قرية أخرى أبعد في السهل والتي يبدو أنها توسعت في السنوات الأخيرة، وحظيت بمنازل فرنسية حديثة، وتحولت إلى حامية عسكرية

[67] السبايسي أو السباهي هم وحدات فرسان في جيش إفريقيا الفرنسي، بالفرنسية : Spahis.

[68] السبب أن الجندي العربي شارك في الحرب الفرنسية-البروسية عام 1870 وفقد ساقه فيها.

محاطة بجدران مربعة تعلوها أشجار السَّرْو، وأسقف البيوت البيضاء، إضافة إلى برج الكنيسة، والمئذنة المائلة، التي تبرز فوق الأسوار الصفراء.

طريق مستقيم وعر ومغبّر، تحفّه الأشجار من الجانبين، يقود إلى البوابة. وفي مركز القرية وأمام الثكنة العسكرية، تمتد ساحة واسعة مهيأة للتدريبات العسكرية، تتناثر فيها بقع من العشب تحت الأشجار الصغيرة. مررنا بالحي العربي القديم، حيث كانت البيوت متفرقة، تفصل بينها نباتات الصبار الكبيرة ذات الجذوع الملتوية، التي يبلغ قطر بعضها ستة أو ثماني بوصات، إضافة الى قصب طويل غُرس كحواجز طبيعية. واصلنا المسير حتى وصلنا إلى السوق، وعند مدخل بوابته تقدم نحونا دركي، يسألني عن هويتي، وبعد بضع كلمات مني، أظهر رضاه وسمح لنا بالمرور.

كان السوق مشهدًا يعج بالفوضى والحركة، حيث تكدست فيه كل أنواع البضائع، من أقمشة الكاليكو والمطبوعات إلى البرنوسات المستعملة وقطع الملابس المختلفة، كلها منتشرة على طاولات التي هي في الأصل مجرد صناديق وُضعت أمام الخيام. كان تجمعًا عربيًا خالصًا. الجِمال البنية، الحمير والخيول، أُلقيَت سُروجها الثقيلة وأغطيتها على الأرض، في حين كانت تهز ذيولها في الظلال الوارفة. وفي زوايا أخرى، كانت عشرات الحيوانات مربوطة بحبال متينة، مثبتة في الأرض، مرتبطة فوق قوائمها الأمامية وقرب حوافرها. الماعز، والأغنام، والكلاب، مُروّضو الأفاعي، المهرجون... كل شيء بدا وكأنه اختلط معًا في سلة كبيرة، ثم أُلقيت بعشوائية، كأنها لوحة بدأها فنان، ثم غيّر تفاصيلها عشرات المرات، فترك رأس حمار هنا، وقدم جمل هناك، وأصابع زنجي أسود هنا، كلها في أماكن غريبة غير منسجمة، في مشهد أقرب إلى العبث منه إلى النظام.

ولما ابتعدنا عن زحام السوق، وجدنا مجموعة من المغاربة السُمْر، عددهم يقارب الستة، قد اجتمعوا حول دائرة من المتفرجين، يتصدرهم رجل طويل القامة، تكسوه الحماسة ويغمره العرق من فرط حركاته العنيفة وإشاراته الحماسية. كان هذا الرجل

يخطب في حشد المتفرجين، وقد انتفخت عروق جبينه وعنقه وهو يدعوهم إلى تصديق ما يرونه من عجائب قدرته، وأنهم، بالإيمان وحده، قد يقدرون على محاكاة أفعاله الخارقة؛ كالإمساك بالأفعى (قرناء صحراوية)، والتعامل مع العقارب السامة، بل وحتى تمرير السفافيد عبر أجسادهم دون أن تسيل قطرة دم واحدة. فضلا عن الحيل الأخرى، وكان الساحر يظهر كأنه أحد أعلام فرقة العيساوية التي اشتهرت بمثل هذه الطقوس. وقد اعتاد، بين الحين والآخر، أن يُخرج من حقيبته الجلدية أفعى سوداء طويلة، لا يظهر منها سوى نصف جسدها، ثم تعود سريعًا إلى داخل الحقيبة، وكان هذا العرض الجزئي يُثير حماسة الحاضرين، ويُشعرهم بأن ما ينتظرهم سيكون أعظم، لكن العرض لن يبدأ إلا بعد أن يجمع الساحر ما يكفيه من النقود. وفي يده الأخرى، كان يمسك بذيل الأفعى ذات اللون الرملي المصفر، وهي شديدة الخطورة، إذ يصعب تمييزها عن رمال الصحراء حيث تختبئ غالبًا بدفن نصف جسدها. كانت الأفعى تتحرك ببطء بالكاد ترفع رأسها، وكان الرجل يسقطها من يده أكثر من مرة، لكنه في كل مرة كان يلتقطها بخفة خلف أذنيها وعلى مقربة شديدة من أرجل المتفرجين المكشوفة، مما كان يثير ذعرهم ويدفعهم للتراجع فيتسع محيط الدائرة من حوله. يُرجّح أن هؤلاء السحرة قد أزالوا السموم من هذه الأفاعي مسبقًا، إذ أن عضة أفعى حقيقية قد تودي بحياة الإنسان خلال نصف ساعة.

ثم لمّا طال وقت التمهيد وجمع النقود أكثر من وقت العرض نفسه، بدأ الساحر المشهد الأساسي، والذي كان يتضمن السماح للأفاعي الطويلة، التي تبدو غير ضارة على الأقل من حيث عضتها، بأن تلتف حول جسده كالحلقات، فتتشابك على خصره وتزحف إلى داخل قميصه، وقد قيل لنا إن الثقوب التي بدت واضحة في وجنتيه وذراعيه، والتي يُدخل فيها السفود خلال العرض، تُترك لتلتئم حول قشة صغيرة أو دعامة تُبقيها مفتوحة، ليتمكن من استخدامها مرات عدّة دون عناء. يقال عن العقرب إنه إذا حُوصر بحلقة من النار لا مفر له منها، فإنه يطوي ذيله فوق ظهره، ويقرص نفسه من رأسه حتى يلقى حتفه؛ ولكن رفعه لذيله ليتخذ شكل مخلب طائر منحنٍ

هو رد فعل دفاعي طبيعي، ومن المحتمل أن هذا ليس بغرض أن يُقرّب السم إلى رأسه. بل من الأرجح أن القلق والاختناق، بل وربما لهيب النار ذاته، هو ما يقتله.

وبالعودة إلى تلمسان، فإن دار الأوبرا عبارة عن قاعة كبيرة، حيث تجد الفرق الفنية التي تعاني من ضعف في الأداء الصوتي جمهورًا معجبًا بها. قائد الأوركسترا، الذي يشكل الأوركسترا بأكملها، يعزف على البيانو ويحافظ على الإيقاع من خلال إيماءات الرأس والانحناءات تجاه المغنيين. كان جمهور تلك الليلة التي شاهدنا فيها أوبرا لادام بلونش[69] مزيجًا من الضباط وعائلاتهم، إلى جانب بعض السكان الفرنسيين – بينما كانت الشرفة تعج بالجنود العرب وجموع متنوعة تتناثر في كل زاوية. وبما أن النقد كان من اختصاص الشرفة، فقد مارس الحاضرون هذا الحق بجرأة لا تخلو من السخرية؛ فعندما غنّى الثنائي[70]"Je ne puis rien comprendre" (لم أستطع ان افهم شيء)، كانت أحد التعليقات التي هبّت كنسمة في الأجواء: "ولا أنا، يا رأس اليقطين الكبير." أما مصدر الترفيه الأكثر شيوعًا وتميزًا فكان طاولة القمار – يُراهن فيها بمبالغ متواضعة – موضوعة تحت الشرفة بالقرب من البار. كانت المشروبات تُقدم والتدخين مسموحًا به طوال العرض، لكن كل شيء كان يترك جانبا خلال فترات الاستراحة لصالح لعبة (Petits-Chevaux)[71]. كان قائد الأوركسترا من رواد هذه الطاولة الدائمين، وكذلك المغنيون الذين كانوا يختلسون لحظات من الراحة، متسللين ومنفلتين من غرف الملابس. وبعيدًا عن واجباتهم على الخشبة[72].

[69] السيدة البيضاء (La Dame Blanche) هي أوبرا كوميدية من ثلاثة فصول للمؤلف الموسيقي الفرنسي فرانسوا-أدريان بوالديو (François-Adrien Boieldieu).

[70] مقطع بين جورج وديكسون وجيني في الأوبيرا التي أشرنا إليها.

[71] لعبة كانت مشهورة آنذاك، وهي تسمى كذلك بارشيسي.

[72] تنتهي بعدها رحلة الكاتب في تلمسان، ويغادرها في ليلة باردة من يونيو/جوان، ليعود إلى مدينة الجزائر.

دراسة وتحليل

تحليل ودراسة

في صفحات نص رحلته، قدّم فريدريك آرثر بريدجمان وصفا واستعراضًا لأبرز معالم مدينة تلمسان وضواحيها، متناولًا مواقع تاريخية هامة مثل أطلال المنصورة، المسجد الكبير، آثار أقادير، بالإضافة إلى مسجد سيدي الحلوي ومسجد سيدي بومدين وغيرها. إلى جانب ذلك تناول أيضًا بعض الأساطير المحلية، مثل أسطورة عين الحوت. وقد بين بريدجمان عن اهتمام خاص بدراسة واقع الأطفال وطريقة تدرسيهم، إضافة الى دور النساء في المجتمع وحياتهن اليومية. يتميز نص الرحلة بغنى تفاصيله، مما يتيح لنا فرصة لتحليل مختلف الجوانب الاجتماعية والثقافية التي عرضها.

تصور ورؤية بريدجمان

على الرغم من أن بريدجمان وُلِد في الولايات المتحدة، إلا أن تأثره بالثقافة الفرنسية كان عميقًا، حيث قضى معظم حياته وتلقى تعليمه الفني هناك. كما كان معلمه الفني الأبرز، جان ليون جيروم، فرنسيًا، وهو ما ترك بصمة واضحة على أسلوبه ورؤيته. انعكست هذه الثقافة الفرنسية الاستشراقية بشكل واضح في كتاباته، التي غالبًا ما اتسمت بنظرة تميل إلى التقليل من شأن سكان المنطقة لتبرير الوجود الاستعماري. ومع ذلك، حاول بريدجمان في بعض الأحيان تقديم أوصاف موضوعية تعكس الواقع بدقة، خاصة فيما يتعلق بسلوك المستوطنين الأوروبيين وحيلهم مع السكان المحليين. إلا أن كتاباته على العموم لم تكن خالية من الأفكار العنصرية. على سبيل المثال، في بداية الكتاب، يبدأ بريدجمان رحلته من ميناء مرسيليا وصولًا إلى مدينة الجزائر، حيث يصور الدايات كطغاة دمويين يمارسون القتل والاستعباد والنهب، مشيرًا إلى تعرض السفن الأجنبية للاعتداء وقتل المسافرين، إذا ما اقتربت من ميناء الجزائر.

يعكس هذا الوصف نظرة استشراقية حيث برر الوجود الفرنسي بتقدميه كمنقذ من «فوضى» تلك الفترة، معتبرًا إياها كابوسًا انتهى بقدوم الفرنسيين. رغم أن وصفه قد يحمل جزءًا ولو صغيرا من الحقيقة التاريخية لتلك الفترة العثمانية، إلا أن غياب السياق التاريخي الذي يمتد لأكثر من 300 سنة يحوّل كلماته إلى حقائق عامة يُسلّم بها القارئ حتما دون تمحيص. هذه النظرة تجسد الفكر الاستشراقي السائد آنذاك، حيث يتم إعادة تشكيل تاريخ منطقة كلية عبر اختزالات تاريخية تخدم المصالح الغربية وتبرر الاحتلال بذرائع مثل نشر الحضارة والتمدن، بينما الهدف الحقيقي هو استخراج الثروات والسيطرة على الأراضي. ولا يمكننا لومه بشكل كامل على هذا التصور، إذ بريدجمان نفسه نتاجًا للتفكير الغربي السائد في تلك الفترة، بالإضافة إلى افتقاره لإتقان اللغة العربية أو العثمانية واعتماده على ما كان يُقرأ في الأدبيات الغربية والفرنسية. وبالتالي كتاباته تحمل انعكاسًا لفكر زمانه.

كتاب أرثر بريدجمان ليس الأول من نوعه في الأدب الرحّالي المكتوب باللغة الإنجليزية عن الجزائر في القرن التاسع عشر. فقد سبقه العديد من الكتّاب في هذا المجال، مثل الكاتب الإنجليزي ألين ألبرت روجرز، الذي نشر كتابه عام 1865 تحت عنوان (A Winter in Algeria 1863-4). يحمل هذا العمل عنوانًا مشابهًا لكتاب بريدجمان، مما يثير التساؤل حول ما إذا كان الأخير قد استلهم عنوانه منه؟ بدوره، لم يكن كتاب روجرز خاليًا من الرؤية الاستشراقية، وهو ما أبرزته الباحثة سعدية صديقي من جامعة مولود معمري بتيزي وزو في دراستها[73]، كما تناولت الباحثة كريمة زروال من جامعة سيرجي بونتواز الفرنسية كيفية تصوير النساء في كتاب روجرز[74]. أما ما يميز كتاب بريدجمان، فهو أنه لا ينتمي إلى فئة الأدلة السياحية، كما كان الحال في معظم الكتابات الفرنسية والأجنبية التي كانت تهدف إلى الترويج للمستعمرات

[73] Mrs. Ellen .G. Rogers's A Winter in Algeria and the Perpetuation of the Colonial Discourse

[74] Algerian Woman Through a 19th Century English Woman's Eyes

الفرنسية وجذب أكبر عدد من المستوطنين والمستثمرين. ولا يقتصر الكتاب على كونه مجرد رحلة أدبية شخصية، أو وصف جغرافي، بل هو رحلة استكشافية مدعّمة بعدد كبير من الرسومات الفنية الأصلية، والتي تعكس رؤية وتصور كاتب وفنان سيصبح لاحقًا أحد أشهر المستشرقين الأمريكيين على الإطلاق.

لغة الكتاب

كُتبت رحلات بريدجمان باللغة الإنجليزية، وهو أمر طبيعي نظرًا لأصوله الأمريكية. ونُشرت هذه الرحلات أولاً في مجلة هاربر الأمريكية التي كانت تصدر كل شهر، قبل أن تُجمع لاحقًا في كتاب. ويبدو أن الكاتب كان يهدف من خلال هذه الكتابات إلى تعريف القراء الأمريكيين بالمستعمرة الفرنسية الجديدة، وإبراز طبيعة مجتمعها وعاداتها، بالإضافة إلى الترويج لرسوماته وتعزيز مكانته في الأوساط الفنية الأمريكية، خاصةً أن المجلة كانت تتمتع بسمعة مرموقة. ومن الواضح أن بريدجمان كان يجيد اللغة الفرنسية، وذلك استنادًا إلى مراحل حياته المختلفة واقاماته المتكررة إلى فرنسا، كما كان يعتمد على مرشدين يتحدثون الفرنسية في رحلاته، واستخدم مصطلحات فرنسية في نصوص رحلاته. ومع ذلك، يبقى السؤال: لماذا لم يكتب بريدجمان رحلاته باللغة الفرنسية؟ من المحتمل أن يكون السبب كون المستشرقين الفرنسيين قد سبقوه في هذا المجال، حيث قاموا بنشر العديد من الكتب والدراسات حول الجزائر منذ بداية الاحتلال الفرنسي. فقد عملت السلطات الفرنسية على جمع المخطوطات والوثائق العثمانية وإرسالها إلى المستشرقين لدراسة المجتمع الجزائري بأدق تفاصيله. بالإضافة إلى ذلك، قد تكون هناك أسباب تجارية أو شخصية دفعته لاختيار اللغة الإنجليزية والتعامل مع مجلة هاربر. وهذه المعطيات تبقى مجرد تخمينات شخصية في غياب أدلة ومعلومات دقيقة.

أسلوب ونهج الكاتب

يتضح من أسلوب الكاتب السردي تمكُّنه الكبير من لغته الأم، الإنجليزية، بالإضافة إلى إتقانه للغة الفرنسية، التي اكتسبها خلال إقامته الطويلة في فرنسا. ومع ذلك، يظل مدى فهمه للهجة العامية المحلية غير واضح، حيث لم يتم دراسة هذا الجانب بشكل كافٍ، مما يفتح الباب للتساؤل حول طبيعة تفاعله المباشر مع الثقافة المحلية ولغة السكان الأصليين. غالبًا ما كان يعتمد على مترجمين ومساعدين لتسهيل التواصل، إلا أن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث لفهم مدى اندماجه في البيئة المحيطة به.

يتميز أسلوبه بدقة وصفية فائقة، حيث يُظهر قدرةً لافتة على ملاحظة أدق التفاصيل ونقلها. ولا عجب في ذلك، فهو في الأصل فنانٌ ورسام، مما يعني أن لديه عينًا فنيةً مدربة على التقاط التفاصيل الدقيقة. بالإضافة إلى ذلك، عايش الكاتب مجتمعًا مختلفًا تمامًا عما اعتاد عليه. فالمجتمعات في شمال إفريقيا تختلف جذريًا عن نظيرتها الأمريكية والأوروبية، حيث تتميز بثقافةٍ وطريقة عيشٍ خاصة. لذلك، كان من الطبيعي أن يكون شديد الحرص على نقل أدق التفاصيل التي صادفها، محاولًا توثيقها بعين فنية وأدبية.

كما تبرز ثراء الثقافة العامة لبريدجمان بشكل واضح في كتاباته، حيث كان يحرص على ملاحظة أنواع الأشجار وتسميتها، بالإضافة إلى اهتمامه بوصف أبعاد وألون المباني، المعالم الأثرية، المساجد، وغيرها من العناصر التي زارها. ولم يقتصر اهتمامه على ذلك فقط، بل امتد ليشمل الألوان، الحيوانات، المجوهرات، والأسواق، مما يعكس نهجه الذي يجمع بين دقة الملاحظة والحس الفضولي. يُرجّح أن هذا الاهتمام بالتفاصيل جاء نتيجة تأثره بمنهج أستاذه الفرنسي جيروم، الذي كان يُعرف بحرصه الشديد على الالتفات إلى التفاصيل واستخدامها لاحقًا كمادةٍ خيالية في لوحاته. هذا النهج في الكتابة ليس فقط دليلًا على تمكنه، بل يُعد أيضًا وثيقةً تاريخيةً قيّمة قد

تساعد على إعادة تصور جزء من ملامح المدينة وحياة سكانها في تلك الفترة الزمنية المعقدة، فأعماله تتجاوز الجانب الأدبي والفني لتلامس التاريخ والتراث.

أما فيما يخص النهج الذي اعتمده في تدوين الرحلة، فمن المرجح أنه كان يدوّن ملاحظاته في نفس الفترة التي كان يعايش فيها الأحداث، ربما عند عودته إلى المنزل أو الفندق الذي كان يقيم فيه. فكتاباته تحمل دقةً توحي بأنها كُتبت في نفس وقت الرحلة أو على الأقل في الأشهر القليلة الموالية.

التوثيق التاريخي

لم يكن بريدجمان مهتمًا بتوثيق تاريخ معالم المدينة بدقة أو الخوض في تفاصيلها المعمارية، بل اكتفى بتقديم معلومات عامة تساعد القارئ على فهم السياق الذي يكتب عنه. ومن خلال حديثه مع الميلود بالقرب من أطلال مسجد أقادير، يتضح أنه كان يعتمد على دليل سياحي مكتوب، مما يشير إلى أنه كان على دراية مسبقة بالمعالم، بالإضافة إلى المعلومات التي كان يحصل عليها من مرشده الميلود الذي رافقه طوال الرحلة. لو كان هدفه التوثيق التاريخي، لكان قد أضاف تفاصيل مستفيضة عما تعلمه خلال زيارته للمدينة.

بدلاً من ذلك، كان تركيز بريدجمان منصبًا على وصف ما يراه بعينيه، ملاحظًا ما يثير انتباهه في المدينة. فعلى سبيل المثال، عند زيارته للمسجد الكبير، لم يذكر المحراب أو القبة، ولم يتناول تفاصيل هندسة المسجد أو تاريخ بنائه. بدلًا من ذلك، ركز على سلوك المصلين، طريقة الوضوء، اصطفافهم، وصوت الإمام. قد يكون قد زار المسجد سابقًا، حيث لم يشر إلى ما إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها المعالم قبل أن يسجلها في رحلته. نفس النهج يتكرر في وصفه للمدرسة، التي هي في الأساس مسجد أبي الحسن التُّنسي، حيث لم يذكر من بناها أو تفاصيلها الهندسية، بل اكتفى بوصف طريقة تحفيظ القرآن وسلوك الأطفال أثناء تعليمهم. هذا الأسلوب

يتكرر في العديد من معالم المدينة، حيث يكتفي بريدجمان بالإشارة إليها دون الخوض في تفاصيل تاريخية أو معمارية.

يتضح من خلال ما كتبه أن هدفه من تدوين الرحلة لم يكن تاريخيًا بقدر ما كان يسعى إلى تدوين ملاحظات ورسومات سريعة تساعده في إنشاء لوحاته الفنية لاحقًا. كما لا يفوتنا كما أشرنا أنه كان يكتب لجمهور أجنبي، ربما بهدف الترويج لأعماله الفنية. ولو كان الهدف تاريخيًا، لكان الكتاب قد امتلأ بالمعلومات التفصيلية، كما كان الحال في الكتب الفرنسية المنتشرة في ذلك الوقت.

مدة رحلته إلى تلمسان

لم يشر الكاتب بشكل صريح إلى الشهر والعام الذي قدم فيه إلى مدينة تلمسان ولا إلى المدة التي قضاها فيها. ومع ذلك، من خلال قراءة نص الرحلة من بدايتها حتى وصوله إلى تلمسان ثم مغادرتها، يمكن استنتاج بعض التفاصيل الزمنية. فقد بدأ الفصل الذي يلي (أسطورة عين الحوت) بالعبارة التالية: "غادرت تلمسان ليلاً بواسطة عربة النقل. على الرغم من أننا في شهر يونيو، كانت الليالي باردة، ولم تكن الأيام قد أصبحت حارة جدًا بعد." من هذا النص، يمكن الاستنتاج أنه غادر المدينة في شهر يونيو/جوان. وبما أنه وصل إلى مدينة الجزائر في نوفمبر 1885، ومن خلال تسلسل أحداث الرحلة، يُرجح أنه وصل إلى تلمسان وغادرها في عام 1886 وليس في 1885. وقد ذكر لاحقًا، عند عودته إلى مدينة الجزائر قادما من رحلته في تلمسان، وصفًا لجو المدينة (أي الجزائر) في منتصف شهر يونيو/جوان، وهذا يدلنا أو يقربنا من تاريخ مغادرته لتلمسان الذي نعتقد أنه حتما قبل منتصف هذا الشهر، فلا يمكن أن يصف جو مدينة الجزائر منتصف شهر جوان وهو مازال في تلمسان، وفترة مغادرته لتلمسان صادفت شهر رمضان من ذلك العام. وبالاعتماد على تقدير بسيط استنادًا إلى قراءة الفصول التي تتناول تلمسان، وذكره لرحلته بالقطار، حرارة الظهيرة، لعب الأطفال، غسيل النساء، ومراسيم الزفاف، يمكن افتراض أن الطقس كان دافئًا إلى حد ما، مما

دفعنا إلى الاجتهاد والاستنتاج بأنه وصل إلى المدينة ربما مع بداية أو منتصف شهر مايو/أيار وغادرها قبل منتصف يونيو/جوان 1886.

ومن الجدير بالذكر أن الكاتب ذكر في الفصول المتعلقة ببلاد القبائل، على سبيل المثال، تاريخ زيارته في أبريل/أفريل 1873، أي خلال رحلته الأولى إلى الجزائر التي بدأت كانت عام 1872. كما أشار في الفصل الذي يتناول مدينة بسكرة إلى أنه زارها في عام 1879، لكنه لم يحدد تاريخًا معينًا لزيارته لتلمسان.

تحليل وضع المدينة ومكان اقامته

يمكن القول إن الكاتب تميز بصراحة واضحة في وصفه لتلمسان عبر الفصول الثمانية التي خصصها للمدينة. فقد عبّر بصدق عن تصوراته وانطباعاته، مشاركًا القارئ تفاصيل تفاعلاته اليومية مع سكان المدينة. ومن خلال وصفه لماضي تلمسان وربطه بواقعها الحالي، يظهر أن الكاتب كان يعبر عن حسرة عميقة إزاء التدهور الذي أصابها. وهذا التدهور لا يقتصر على فترة الاحتلال الفرنسي فحسب، بل يعود كذلك نتيجة إهمال الأتراك للمدينة والصراعات الداخلية التي شهدها الحكام أواخر عهد الزيانيين. ومنذ ذلك الحين فقدت تلمسان بريقها ومكانتها كمركز حضاري وثقافي للمغرب الأوسط. هذه الملاحظات تتوافق مع ما ذكره الرحالة الآخرون بعده في تلك الفترة، الذين كانوا يسترجعون ماضي المدينة العريق ويتحسرون على واقعها الذي تحوّل إلى أطلال شاهدة على صراعات تاريخية متعاقبة.

أما فيما يتعلق بمكان إقامة الكاتب خلال زيارته لتلمسان، فلم يذكر ذلك بشكل صريح، واكتفى بالإشارة إلى اسم مرشده التلمساني فقط. ومع ذلك، يمكن الاستنتاج أنه كان يقيم في فندق، استنادًا إلى إشارته في فصل (بخصوص الأطفال) إلى الطفلة التي كانت تقابل نافذة الفندق الذي كان يقيم فيه. هذا يدفعنا إلى التساؤل: هل أقام طوال رحلته في الفندق؟ أم أنه استأجر منزلًا في مرحلة ما؟ بناءً على السياق التاريخي وعدد

الفنادق في تلك الفترة، يمكن الاجتهاد في تحديد أماكن إقامته المحتملة. فمن المرجح أنه ربما كان يقيم في الطابق الأول، مما سمح له بمشاهدة الطفلة التي أشار إليها.

وكل هذه التفاصيل الدقيقة في السرد، وإن كانت تبدو أحيانا بسيطة، تُظهر دقة بريدجمان في وصف يومياته وحرصه على نقل كل السلوكيات التي تميز المجتمع الذي يزوره.

أهمية رحلته إلى تلمسان

يُعتبر هذا العمل مصدرًا تاريخيًا ذا أهمية معتبرة لفهم مدينة تلمسان خلال نهاية القرن التاسع عشر. رغم أن الصور الفوتوغرافية بدأت في الانتشار منذ ستينيات القرن التاسع عشر كوسيلة لتوثيق معالم المدينة وأوضاع سكانها، إلا أن الغالبية العظمى منها، إن لم تكن جميعها، كانت تُنتج بتوجيهٍ استعماري محض. فلم تكن هذه الصور تهدف إلى نقل الواقع بموضوعية، بل كانت تركّز بشكلٍ انتقائي على ما تريد السلطات الاستعمارية إبرازه، مثل معالم المدينة أو بعض جوانب الحياة اليومية لسكانها، وذلك بهدف طباعتها لاحقًا في بطاقات بريدية أو نشرها في مجلات وكتب علمية أو ترويجية تخدم الرواية الاستعمارية. بالإضافة إلى ذلك، لا توثق الصور الأساطير الشفهية ولا تنقل حوارات السكان، مما يجعلها محدودة القيمة من حيث فهم السياق الثقافي والاجتماعي بشكل شامل.

إضافة إلى ذلك، كانت تقنية الفيديو غائبة تمامًا في الجزائر، كما كان الحال في معظم الدول الأخرى خلال تلك الفترة، حيث بدأت هذه التقنية في الانتشار عالميًا وفي الجزائر مع مطلع القرن العشرين. لذلك، يأتي السرد الأدبي الذي قدّمه الكاتب ليملأ جزءًا من هذه الفجوة، حيث يسمح لنا بإعادة تصور ملامح المدينة وتراثها، وكذلك فهم جوانب من الحياة اليومية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ومع ذلك، لا يمكن إغفال أن الكاتب، كما أشرنا سابقًا، كان يتغاضى حتمًا عن الممارسات الاستعمارية. وإن لم تكن لدينا أدلة ملموسة على ذلك، إلا أن توجهاته الاستشراقية ونظرته إلى المجتمع الجزائري، بالإضافة إلى السياق التاريخي الاستعماري الذي كان يهيمن على البلاد، تدفعنا إلى التساؤل عن الدور الذي لعبه الكاتب في هذا الإطار. هل كان مجرد فنان وكاتب مراقب، أم أنه كان جزءًا من الآلة الاستعمارية التي سعت إلى توثيق الواقع بشكلٍ انتقائي يخدم مصالحها؟

هذا التساؤل يفرض نفسه بقوة، خاصةً في ظل غياب روايات محلية توثق تلك الفترة. لكن، يظل عمل الكاتب وثيقةً تاريخيةً قيّمة، تحتاج إلى قراءة نقدية تضع في الاعتبار السياق التاريخي والتحيّزات الفكرية التي قد تكون قد أثرت على رؤيته ووصفه.

لوحاته في تلمسان

من خلال الرحلة التي قام بها بريدجمان إلى مدينة تلمسان، والدراسات التي أجراها على المجتمع وملاحظاته التي دونها، يتبين أنه قام برسم بعض اللوحات الفنية. وقد حاولت البحث عن جميع اللوحات التي نتجت عن الفترة التي قضى فيها في المدينة، ولم أجد سوى ثلاث لوحات. وهي، لوحتان تصوران صحن ومكان وضوء الجامع الكبير في وسط المدينة، بينما تصور اللوحة الثالثة فتاة تلمسانية في أعالي حي العباد وهي كلها مدرجة في ملحقات الفصلين على الترتيب : جولة في المدينة، بومدين. بعض من هذه اللوحات الأصلية مزال يباع في المزاد العالمي إلى حدود كتابة هذه الأسطر.

استنتاجات عامة من رحلته إلى تلمسان

من خلال نص هذه الرحلة، يمكن استخلاص عدد من الاستنتاجات أو الملاحظات حول الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية العامة خلال تلك الفترة:

أ. الآثار ومعالم المدينة

يتبين من النص أن معالم المدينة كانت في حالة مزرية، وهو ما يعكس فترة طويلة من الإهمال بدأت منذ سقوط حكم الزيانيين، مرورًا بالسيطرة العثمانية، وصولًا إلى الحكم الاستعماري الفرنسي. ففي بداية الاحتلال، كان الحكم عسكريًا ولم يكن من بين اهتماماته المحافظة على الآثار ولا دراسة المعالم التاريخية. لكن مجيء الحكم المدني، تغيرت الأمور تدريجيا وأصبح الاهتمام بدراسة الأثار في قائمة الأولويات، وهو ما سيتجسد لاحقًا في أعمال شارل بروسلار والأخوة ويليام وجور مارسي، الذين قاموا بتوثيق وتسجيل هذه المعالم.

ب. الجهل والدروشة

وصـــف بريدجمان بعض الطقوس المتبعة، مثل التبرك بالأولياء والإيمان الكامل بقدراتهم الخارقة. هذه الظواهر تشير إلى حالة الجهل والدروشة التي كان يعاني منها المجتمع في تلك الفترة، وهو ما يعود إلى قلة التعليم الصـــحيح وتغييب الأســـس الدينية السليمة. هذه الحالة من الضياع كانت سائدة في المجتمع وازدادت قوة بسبب الظروف التي فرضها المستعمر. ولا تزال بعض هذه الممارسات موجودة حتى اليوم.

ت. العادات والتقاليد

بحسب وصف الكاتب لِلباس سكان تلمسان من الأطفال والنساء والرجال، يتضح أن المجتمع كان متمسكًا بعاداته وتقاليده. ولم يكن قد تأثر بشكل كبير باللباس الأوروبي، رغم أن هذا الأخير بدأ يتسلل تدريجيًا مع بداية القرن العشرين. بعض هذه العادات والتقاليد ما زالت حاضرة في المجتمع إلى اليوم، خصوصًا فيما يتعلق باللباس وبعض مراسم الأعراس، على الرغم من أن الأخيرة قد شهدت بعض التغيير تماشيًا مع العصر.

ث. التجارة والحرف

كانت تلمسان مدينة معروفة بصناعاتها وحرفها اليدوية. وقد أشار بريدجمان إلى هذه الحرف بشكل متكرر، حيث وصف دكاكين الحرفيين مثل صائغي الذهب، وصانعي السروج، وصانعي الملابس، وغيرها من الأنشطة التجارية التي كانت تزدهر في شوارع المدينة. وأشاد بالتنوع في المنتجات ومهارة حرفيّيها.

ج. الظروف المعيشية

من خلال وصف بريدجمان لحالة الأطفال في المدينة، يبدو أن الطبقة البسيطة كانت تعاني من ظروف معيشية صعبة. على سبيل المثال، كان الأطفال يتسولون من الغرباء طلبًا للمال، مما يعكس حالة الفقر المدقع التي كانت تسود المجتمع. إذا لم تكن هناك ضائقة مالية، لما كان الأطفال في ذلك العمر يتوجهون إلى الغرباء لطلب المعونة، بل كانوا يكتفون باللعب والتسلية كغيرهم من الأطفال في أماكن أخرى.

وختاما تمثل رحلة فريدريك آرثر بريدجمان إلى تلمسان شهادة تاريخية توثق ملامح المدينة خلال أواخر القرن التاسع عشر. من خلال وصفه للحياة الاجتماعية والعمرانية، يقدّم رؤية ثرية تجمع بين الانطباع الفني والتأثيرات الاستشراقية. رغم بعض التحيزات في سرده، فإن كتابه يظل مصدرًا مهمًا لفهم واقع تلمسان والجزائر في تلك الفترة، ويتيح للقارئ فرصة لاكتشاف تفاصيل الحياة اليومية من منظور أجنبي عاش التجربة عن قرب.

الترجمة الفرنسية

UN VOYAGE À TLEMCEN

D’Alger à Oran, le voyage en train dure une bonne journée, chaude et fastidieuse. Pendant les mois les plus chauds de l’été, les trains circulent de nuit, car la terrible Vallée du Chélif, à travers laquelle passe une grande partie du trajet, est presque insupportable en plein jour. Couvert de blé ondoyant, d’herbe et de fleurs au printemps, ce paysage devient un désert aride et desséché en été. Le soleil, monarque absolu de tout ce qu’il contemple, anéantit ici toute vie, animale et végétale. La chaleur y est aussi intense (50°C à l’ombre) que sur la lisière du Sahara, cent miles plus au sud.

Les Arabes utilisent le train; après beaucoup de temps et de délibérations, ils parviennent à acheter un billet et sont dirigés vers le compartiment, généralement de troisième classe, qu'ils doivent occuper. N'étant pas habitués aux chaises, ils s'accroupissent sur les bancs lorsqu'il y a de la place, enlèvent leurs chaussures et tiennent leurs orteils, une posture qu'ils affectionnent particulièrement pour trouver du confort. Des visages fatigués, solennels et hâlés par le soleil, aux sourcils perpétuellement froncés par l'habitude de protéger leurs yeux injectés de sang, remplissent les fenêtres, tandis que des foules d'autres personnes, errant autour des gares, vous regardent avec envie, sous les plis d'un turban ou sous d'immenses chapeaux de paille, aux bords de trente centimètres et au sommet aussi haut, ornés de divers motifs en bandes et losanges de cuir, de tissu et de glands de couleurs variées.

Misérables habitants des douars voisins (villages de tentes), vêtus du seul burnous qu’ils n’aient peut-être jamais possédé depuis leur âge adulte —

un vêtement déchiré, rapiécé, reprisé jusqu'à ce que son étoffe d'origine ait disparu — offrent timidement à la vente des dattes, des oranges, des nèfles, des arachides, des figues, la maigre production de leur propre lopin de terre. Malgré leur saleté et leurs haillons, ne sont-ils pas toujours plus pittoresques et intéressants que les vagabonds correspondants parmi nous, aux coudes et aux genoux troués, sans parler de leur penchant pour l'alcool, presque inconnu chez les musulmans ?

Tant que le burnous tient encore, il conserve, dans ses longs plis, une allure aussi classique que la toge. Qu'il soit usé ou souillé, il offre toujours une infinie variété dans son drapé. Comparez cette belle vieillesse à la décrépitude précoce et fatale d'un simple pantalon moderne, par exemple ! Et comment se fait-il que nous ayons perdu le secret de la dignité dans l'habillement pour n'en retenir que celui de la négligence?

Le touriste européen en quête de curiosités et le voyageur de commerce pompeux, ces vieux habitués connus de tous les hôteliers des villes et des charmantes serveuses des restaurants de gare, savourent d'excellents repas aux haltes du voyage, même dans des lieux d'une apparence des plus lugubres, où l'on imagine que rien ne pourrait prospérer, hormis les scorpions et les lézards. Sont également bien visibles, bien sûr, le colon assez intelligent et le colon ordinaire, ce dernier étant presque un Arabe par son niveau intellectuel et sa brutalité. Il insulte et malmène le *cochon d'indigène*, comme il l'appelle invariablement, le trompe, et si ce dernier ose répondre de la même manière aux abus du colon, il doit en subir les conséquences, comme s'il était le seul coupable. Le colon ingénieux, par exemple, invente un tonneau à double fond de plusieurs centimètres, qu'il utilise à son avantage pour acheter de l'huile d'olive : l'huile, disparaissant lentement, laisse place à plusieurs litres de

plus que sa capacité légitime. L'indigène, lorsqu'il découvre les ruses de son frère étranger, n'est pas assez sot pour ne pas en inventer à son tour.

En mettant de côté ces tromperies grossières, la maîtresse de maison étrangère, en traitant avec les Arabes des villes, se trouve souvent perplexe quant au véritable coût des divers aliments qu'elle achète pour sa table. Si ses domestiques sont des étrangers qu'elle a amenés avec elle à Alger, ils doivent payer les prix des étrangers ; si elle cherche à économiser en engageant des domestiques algériens, ces derniers peuvent obtenir les articles aux prix arabes, mais ils empochent à leur tour la différence, de sorte que la maîtresse paie toujours un prix en fonction de sa nationalité.

La Vallée du Chélif est irriguée par un système de barrages ; une digue en pierre, longue de plus de cinq cents mètres, haute de quarante mètres et tout aussi large, retient près de quatre cents millions de mètres cubes d'eau alimentés par les rivières. Lorsque ce mur céda sous la pression de l'eau il y a quelques années, une immense étendue de terre fut dévastée, des villages furent emportés, et des centaines de leurs habitants se noyèrent.

Le voyageur ne perd presque jamais de vue la tombe d'un marabout ; si l'une de ces tombes ne brille pas, semblable à un gigantesque œuf de roc, contre le flanc jaune d'une colline ou les montagnes bleues au loin, une autre peut être aperçue sur un sommet solitaire, découpée sur le ciel. Le dôme est généralement en forme de pointe d'œuf, entouré de quatre petites tourelles, une à chaque coin de la structure carrée. Le marabout est enterré à proximité de son ancienne demeure, et son tombeau est entretenu grâce aux dons et aux offrandes des pèlerins.

Au bord de la route, le voyageur aperçoit souvent des buissons épineux, entièrement couverts de morceaux d'étoffe de toutes les couleurs. Ces lambeaux sont des fragments de vêtements laissés par les Arabes de passage, qu'ils déchirent et suspendent en guise d'hommage à la mémoire du marabout dont ils traversent les terres sacrées. À première vue, ces buissons donnent l'impression d'avoir capturé la marchandise d'un chiffonnier itinérant. Par endroits, les collines sont recouvertes de palmiers nains de soixante centimètres à un mètre vingt de hauteur. Un chêne robuste, isolé au milieu de ce paysage aride, parfois à plusieurs kilomètres de tout autre arbre, devient un véritable aimant pour une famille de nomades qui installe ses tentes en poil de chameau à proximité—mais rarement autour ; pourquoi, je l'ignore. Autour de leur petit douar, ils dressent une haie impénétrable de buissons épineux d'un gris cendré, serrés les uns contre les autres.

L'unique refuge contre le soleil brûlant pour les chevaux, les ânes, les moutons et les chèvres du *douar* est offert par le chêne. De petits nuages de poussière s'élèvent rapidement, attirant l'attention du voyageur. Un âne trotte péniblement, ses pattes arrière chancelantes et se heurtant l'une contre l'autre, signe qu'il a été mis au travail bien trop jeune. Sur son dos est assise une femme, un enfant sur les genoux ou accroché derrière elle, ses petites jambes poussiéreuses écartées sur des sacs et des paniers. Le père, à la peau cuivrée, marche à côté ou ouvre la route, une longue carabine en travers des épaules, tandis que des couteaux grossièrement façonnés, glissés dans des fourreaux de cuir, pendent à sa ceinture, à portée de main. Moins classique, moins propre et certainement moins conventionnelle qu'une peinture, cette scène n'en demeure pas moins une évocation saisissante de la *Fuite en Égypte*.

D’Oran, qui est en tout point moins intéressant qu’Alger—du moins pour l’artiste et le grand public—, nous poursuivons notre voyage en train, après une nuit de repos, jusqu’à Aïn-Témouchent. Ce terminus est sans grand intérêt. Une rue principale bordée de maisons basses et de boutiques modernes de colons en constitue cependant un point important sur la route de Tlemcen. La diligence, incrustée de poussière, se voit ajouter un troisième étage sous la forme de malles, de caisses, de paniers, ainsi que d’un paquet d’épées, de bottes et de couvertures appartenant à deux jeunes soldats revenant d’une courte permission. Ils ont le nez et les joues rouges, la peau en train de peler, et le front brûlé par le soleil, marqué d’une sorte de ligne de marée haute contre la peau blanche que leur casquette a protégée du soleil.

Derrière le siège du conducteur se trouve la banquette, offrant quatre places et peut-être les plus agréables. Derrière cette banquette, sous la bâche qui recouvre le chargement du troisième étage, quelques Arabes s’entassent. La chaleur y est étouffante, mais ils font preuve de patience, ou peut-être se consolent-ils, comme ils le font en toute circonstance, en se disant que *"c’est écrit"* qu’ils doivent souffrir ainsi. L’*intérieur*, pouvant accueillir huit à dix personnes, est peut-être encore pire ; la poussière y tourbillonne en nuages et stagne dans l’espace clos, où aucun courant d’air ne vient la disperser. J’avais retenu la place numéro deux, malheureusement située au milieu du *coupé*, le compartiment avant, qui offre une vue dégagée vers l’avant mais se trouve aussi sous le siège du conducteur. Ce dernier, dont le siège dépasse et cache le ciel devant nous, collecte en route des paniers d’œufs, des bottes d’artichauts et des sacs de foin et d’avoine dans les différents villages, et les entasse sous son siège jusqu’à leur livraison aux stations suivantes.

Sept chevaux bien soignés furent attelés et mis en place pendant que nous terminions notre café et notre cigarette après un petit déjeuner convenable. Nous partîmes d'un bon pas, à la minute près, au son du claquement de fouet. Mes deux compagnons de voyage se révélèrent être deux habitants aisés de Tlemcen. Plutôt peu communicatifs au début, ils devinrent plus agréables, mais, ne connaissant que très peu le français, notre conversation resta limitée. Un moyen de rapprochement fut rapidement trouvé sous la forme d'un panier de nèfles du Japon—d'un jaune éclatant et assez acides pour être rafraîchissantes—que j'avais acheté à Aïn-Témouchent, en prévision d'un trajet chaud et poussiéreux de huit heures.

Avec un peu d'imagination, je pouvais voir dans mon compagnon de gauche le parfait type d'un prince de la maison de Tlemcen d'il y a quelques siècles, rentrant de Grenade par Oran vers son palais perché à sept cent cinquante mètres d'altitude. Des traits nets, de profonds yeux noirs comme des perles, et un nez légèrement aquilin ; on devinait presque l'empreinte du pouce et des doigts de son père là où la pression parentale lui avait donné cette courbure descendante. Car un Arabe, en dehors des caractéristiques propres à sa race, ne peut jamais avoir, en raison de ce procédé à sa naissance, un nez retroussé. Les petites filles, cependant, semblent parfois échapper à cette attention des parents, leur venue au monde étant considérée comme un malheur pour la famille ; tout ce qui va de travers leur est attribué, conséquence de l'étoile malveillante qui les protège. Le Prince portait une fine moustache noire taillée droit au-dessus de la lèvre, et sa barbe, soigneusement rasée autour du cou, ne laissait qu'une bande étroite reliant les oreilles et se terminant en pointe au menton. Lors de notre premier arrêt pour le relais

des chevaux, il insista pour que je boive avec lui. Fidèle à sa religion, il ne prit rien de plus fort que de l’orgeat.

Nous ne perdîmes jamais de vue la montagne au loin où se trouve Tlemcen, et je brûlais d’impatience de voir enfin quelque chose de plus intéressant que cette contrée ondulée, couverte de palmiers nains et de rochers, dont la monotonie devenait lassante. Nous croisâmes des bergers poussant des troupeaux de plusieurs centaines de moutons, et nous les traversâmes comme un bateau fend les flots. De temps à autre, un douar misérable, composé de quelques tentes, apparaissait près d’un ruisseau, où les femmes, se cachant à moitié le visage, allaient chercher de l’eau à pas furtifs, prêtes à fuir si elles se retrouvaient trop près de la diligence. Une demi-douzaine de chameaux faméliques broutaient dans les petites vallées ; levant leur long cou, ils nous observaient d’un regard mélancolique tandis que notre caravane compacte avançait lentement dans un nuage de poussière, les clochettes des chevaux tintant mollement, tandis que les voyageurs, épuisés, somnolaient sous la chaleur accablante. Notre quatrième et dernier relais eut lieu au pied de la montagne, avec Tlemcen enfin en vue. Nous atteignîmes notre destination à un galop furieux, sur une route aussi bonne que celle des Champs-Élysées.

Avant même de franchir les fortifications, les portails et les murailles de l’ancienne capitale, trois jeunes garçons bien vêtus et charmants, âgés de huit, douze et seize ans, descendirent en dansant la route en zigzag jusqu’à notre diligence. Chacun tenait à la main une fleur—un lys blanc ou une rose—qu’ils jetèrent avec une grâce exquise à travers la fenêtre de notre coupé. Le Prince était leur oncle, et ils étaient venus lui souhaiter la bienvenue de cette manière touchante. L’aîné, les yeux pétillants et le visage ovale et lisse, prit la main du Prince et courut à nos côtés, lui

posant mille questions après les salutations d’usage, qui, à elles seules, constituaient déjà une longue conversation. Il fallait en effet se serrer la main à plusieurs reprises, en la levant et l’abaissant, tout en demandant des nouvelles de tous les membres de la famille—que Dieu les bénisse, que tous leurs projets prospèrent, que leurs investissements se révèlent fructueux, etc. Comme partout ailleurs, l’arrivée de la diligence était un événement marquant de la journée et provoquait une agitation habituelle. Les cochers semblent toujours garder assez d’énergie à leurs chevaux pour faire de chaque trajet une entrée triomphale. Nous passâmes sous une avenue d’ormes (?) d’une hauteur impressionnante, dont les branches se rejoignaient au-dessus de nous, formant une voûte rappelant les arcs de la cathédrale de Séville. Ces arbres surplombaient les immenses et imposantes murailles du Mechouar, l’ancienne citadelle, aujourd’hui place forte de la garnison française.

À TLEMCEN

SAOUARR! — *Saouarr!* cria un jeune garçon à la peau brune et aux yeux malicieux à ses compagnons, tout en s'emparant de mon sac et de mon manteau, tandis que je m'efforçais de dégourdir mes jambes engourdies. Il devina ma profession au premier regard et se réjouit lorsque je la lui confirmai, car il entrevoyait plusieurs jours de travail lucratif à porter ma boîte de couleurs et ma toile, sans compter le partage de mon déjeuner lors de mes excursions lointaines. Mais combien de temps son caprice lui permettrait-il de profiter de cette nouvelle occasion? C'était une question difficile à trancher. Comme à Alger, on ne peut jamais compter sur la fidélité d'un tel assistant pour plus de vingt-quatre heures. Mes déceptions avaient été nombreuses et irritantes, et je pensais qu'en changeant de lieu, d'air et même de race, j'aurais peut-être plus de chance. *Race*, dis-je, car les ethnologues nous disent qu'ici, près de la frontière marocaine, on trouve davantage de Berbères, les habitants de l'Algérie d'avant l'arrivée des Arabes et des Turcs, et qu'en particulier sur la côte au-delà d'Oran, le type berbère est plus marqué. Hélas ! Il possède bien assez de ce que l'on appelle communément *sang arabe*, sans qu'il soit nécessaire d'évoquer le mélange berbère, turc ou maure, pour le rendre totalement peu fiable. Un écrivain français affirme : *« Qui dit Arabe dit voleur, sans exception. »*

Mohammed, celui qui m'avait raconté les légendes déjà relatées, me donna son opinion sur le mensonge, une opinion bien sûr partagée par ses semblables. Les récits et légendes arabes sont pleins de phrases imagées et de métaphores, et voici comment il définissait un mensonge :

— Un zéphyr soufflé des lèvres se dissipe et se perd dans l'air ; qu'y a-t-il de tangible dans un mensonge ou dans toute parole prononcée ?

— Eh bien, Mohammed, supposons que tu aies soufflé plusieurs de ces zéphyrs lors d'une transaction commerciale et que, pour récompense, tu récoltes un œil au beurre noir ou une tête fendue… Ne penserais-tu pas alors que la réaction de ce zéphyr a accumulé une force bien tangible quelque part dans l'atmosphère environnante?

Tlemcen s'étend sur le versant nord de la montagne Lalla Setti, à une cinquantaine de kilomètres de la mer; à travers une trouée dans les collines lointaines, en direction d'Oran, on aperçoit la Méditerranée. La situation de la ville est magnifique, adossée aux roches arides. Au-dessus du plateau où s'élève la ville, en contrebas et à perte de vue, s'étendent de denses bosquets d'oliviers et de figuiers, sous lesquels, dans une terre rouge, poussent blé et fleurs dans des champs bien irrigués et soigneusement cultivés. À plusieurs kilomètres à l'est de la ville, une rivière se précipite en cascades vertigineuses entre des parois de roche massive. Un canal de près de quinze kilomètres de long, d'un mètre de large et de profondeur, est alimenté sans cesse par cette rivière. Tous les quelques mètres, une ouverture de quelques centimètres de diamètre laisse s'écouler un mince filet d'eau, formant un système d'irrigation continue. Tout ce qui se trouve au-dessus de la ligne droite du canal est roc nu, avec seulement quelques plaques d'herbe rase et maigre ici et là; tout ce qui se trouve en dessous est verdure et vie.

Quels prodiges durent être Tlemcen et Mansourah à leur apogée ! Un sentiment de tristesse indicible s'empare de l'âme lorsqu'on contemple ces ruines qui furent jadis des centaines de mosquées et de palais, ainsi que d'innombrables demeures exquises aux carreaux éclatants, colonnes

d'onyx translucide et sols de marbre, entourées de fleurs, de fontaines et de jardins luxuriants. Les quelques minarets encore debout sont d'une beauté saisissante, d'un style mauresque d'une rare élégance. Le seul vestige d'un prince de Mansourah est un minaret d'une splendeur incomparable. Bien qu'il n'en subsiste qu'une seule face intacte et des fragments de deux autres, il reste un trésor architectural. Heureusement, ce qui en demeure a été consolidé et préservé, tant par des barres de fer et des pierres neuves que par la vigilance d'un gardien qui empêche les voyageurs avides de souvenirs de gratter un ornement ici, de voler un carreau là, ou d'inscrire leur nom et la date partout.

Lorsque l'on découvre les noms d'*Alexandre, César, Napoléon* ou même *Thackeray* gravés sur les pyramides, à Abou Simbel ou à Karnak, on y voit un témoignage historique. Mais lorsqu'on aperçoit la signature d'un *Smith, Brown* ou *Hutchinson*—ce dernier ayant, si je me souviens bien, tracé son nom en lettres d'un pied de haut avec du goudron, recouvrant de délicats hiéroglyphes sur les murs et plafonds de tombeaux et temples égyptiens—on éprouve une furieuse envie de le goudronner et le plumer, voire de lui couper les oreilles. C'est un fait regrettable que le nombre de carreaux précieux, de portes et de marbres entassés en vrac dans le musée de Tlemcen ne puisse bénéficier des mêmes soins que le minaret de Mansourah. Ces trésors devraient être classifiés et préservés correctement; mais des objets disparaissent, et nul ne semble savoir pourquoi ni comment.

Abou Yakoub assiégea Tlemcen pendant quatre ans. Il avait installé son camp à un mile de la ville, pensant s'en emparer en quelques jours en affamant ses habitants. Mais, ayant mal évalué soit sa propre force, soit celle du roi de Tlemcen, il comprit rapidement qu'il allait devoir s'installer pour un long siège. Il se mit donc à bâtir sa propre ville. Aujourd'hui, il ne

reste de cette entreprise que l’exquis minaret, les murs indiquant la taille et la forme de la mosquée à laquelle il appartenait, quelques tourelles, ainsi que d’immenses blocs de béton qui formaient l’enceinte fortifiée. De forme générale carrée, celle-ci s’étendait sur plus de cent hectares, témoignant de la puissance du prince rival.

Nous suivons les anciennes fortifications de Tlemcen proprement dite, le long du bord inférieur du plateau. D’énormes cactus, couverts de fleurs éclatantes et de fruits, ainsi que des arbustes et des buissons de toutes sortes, y poussent en abondance. Un chien arabe féroce, au pelage hérissé, surgit soudain, aboyant d’une voix rauque et découvrant ses crocs. Il vous fait sursauter en s’élançant vers vous, retenu de justesse par une longue chaîne. Il monte la garde auprès d’un cerisier ou d’un figuier, protégeant les fruits contre les rapines des voisins. Non loin de là, cachée au milieu de la végétation, on devine la présence d’une cabane ou d’une tente. À travers les broussailles, on aperçoit furtivement le beau visage d’une femme qui actionne une meule primitive. Tournant une lourde pierre ronde sur son pivot, elle moud du grain ou du maïs, laissant tomber la farine autour de la pierre inférieure sur une toile ou une peau de mouton. Outre l’écran naturel formé par les cactus et les néfliers, d’autres protections sont parfois installées: des roseaux, plantés serrés dans le sol et attachés ensemble à intervalles réguliers, complètent la clôture.

De charmants petits enfants accourent en voyant passer l’étranger: — *Sordi, mossou!* (un sou, monsieur). Ils le disent avec une intonation si douce et enjouée, leurs voix enfantines montant et descendant en une prière mélodieuse, qu’il est difficile de leur résister. Mais au moment où l’on s’arrête pour chercher une pièce dans sa poche, ils détalent à toutes jambes. Il faut alors les convaincre de revenir chercher leur *sordi*, en leur

assurant qu'ils n'ont rien à craindre. Ils s'approchent alors prudemment, mais font signe qu'il faut laisser la pièce par terre. Dès leur plus jeune âge, on leur enseigne la méfiance envers tout le monde. — *Non, petite friponne, tu dois la prendre de ma main.* L'une d'elles ose enfin s'approcher. Dès qu'elle a sa pièce, elle s'enfuit comme si elle avait le diable aux trousses.

Nous arrivâmes à une mare où des femmes, des négresses et des enfants lavaient avec ardeur du linge, des tapis et des peaux de mouton, ne prêtant guère attention à mon guide et à moi. Leurs *haïks* étaient entassés sur leurs têtes, et des pans superflus de tissu étaient glissés dans leurs ceintures. Tenant entre leurs genoux à la fois leur sous-vêtement et leur *gandoura* extérieure, elles tordaient et essoraient leur linge trempé à pleines mains, leurs bras, jambes et pieds nus exposés à l'effort. Tout en accomplissant leur tâche, elles échangeaient des remarques sur le *roumi*—et ce *roumi*, c'était moi—qui se réjouissait d'avoir l'occasion rare d'observer un tel spectacle, mêlant une profusion de beauté et de laideur, le tout enveloppé dans une infinie variété d'étoffes de toutes les couleurs: épaisses, fines, neuves, usées, rapiécées.

Pourtant, comme dans la plupart des associations de couleurs propres aux Arabes, lorsqu'ils ne sont pas influencés par nos teintures bon marché et abominables—le vert arsenic, le prétendu magenta et autres horreurs—l'ensemble restait parfaitement harmonieux. Les femmes de Tlemcen, fidèles à la coutume des peuples semi-civilisés, portaient toujours une abondance de bijoux, et ne s'en débarrassaient même pas lorsqu'elles se livraient aux travaux les plus pénibles. Remarquant que les femmes de ce lavoir faisaient grand étalage de leurs charmes, j'en déduisis que les hommes devaient soigneusement éviter cet endroit, sous peine d'avoir des ennuis s'ils s'attardaient à les observer.

Plus loin, nous arrivâmes à une tannerie indigène, et nos narines ne nous trompèrent pas sur sa localisation. Une douzaine d'Arabes, aussi bruns que s'ils avaient été repêchés des cuves, semblaient si imprégnés de l'atmosphère nauséabonde de leur travail que leur odorat ne semblait plus en état de réagir. Bien entendu, cette scène n'aurait pas été complète sans la présence de trois ou quatre chiens féroces, rôdant autour des lieux.

Sidi-el-Halawi (*le confiseur*), situé hors des murs, est une mosquée en parfait état de conservation, bien que malheureusement laissée à l'abandon. Les oiseaux y construisent leurs nids à leur guise, les nattes sont usées et couvertes de poussière, et la fontaine, délabrée, est tarie. Le minaret, et en particulier les huit colonnes d'onyx, sont d'un dessin admirable. Le sidi doit certainement avoir son anniversaire, lors duquel sa mosquée bénéficie d'un sursaut d'attention et se voit au moins balayée et illuminée.

Bien que cela relève des anecdotes personnelles, je dois donner à mon lecteur le nom de mon guide, un Tlemcénien d'une grande bienveillance, à la fois affable et d'une dignité naturelle, dont le nom mérite d'être mentionné, tant il est caractéristique. Miloud ben Mohammed ben Koujahbass, plus familièrement connu sous le nom de Baba Miloud, ou Père Miloud, jouissait d'une certaine célébrité dans la ville. Cela était dû, je suppose, d'une part à son âge avancé—soixante-huit ans—et à son statut de *nombreux grand-père*, et d'autre part au fait qu'il prenait sous son aile protectrice tous les étrangers de passage, leur faisant visiter la ville et ses curiosités avec une amabilité qui les retenait sous sa coupe quelque temps… à raison de trois francs par jour. Et pourtant, il aurait pu leur montrer tout ce qu'il y avait à voir, dans la ville comme aux alentours,

en l’espace d’un seul tour d’aiguille sur une montre, et encore, à un rythme tout à fait tranquille.

Au retour de notre visite à Sidi-el-Halawi, nous rentrâmes à Tlemcen par l’un des nombreux grands portails de la ville. Soixante mendiants, certains vêtus de haillons, d’autres à peine couverts, s’étalaient contre les murs, profitant du soleil de midi. Les moutons et les chèvres, quant à eux—tout comme Miloud et moi—longeaient l’ombre des murs, évitant la chaleur accablante du soleil. Les chevaux et les ânes s’abritaient sous des platanes bordant la grande route, près de tentes où grouillaient bébés, chiots et chevreaux, entremêlés aux casseroles, marmites, plats en bois pour le couscous, tamis, cordes enroulées et peaux de mouton. En somme, un bric-à-brac rappelant à s’y méprendre les mille et un accessoires du saltimbanque ambulant que nous connaissons bien sur les routes du Nord.

ERRANCES DANS LA VILLE

À l'intérieur des portes, de longues rangées de boutiques prospèrent, vendant en gros et au détail des cotonnades, des imprimés, des mouchoirs, des étoffes de laine et de coton bon marché, aux teintes éclatantes de rouge et de jaune, des dentelles ordinaires et des gaze légères, du galon doré, etc. Parmi tous ces articles, ce sont les mouchoirs qui sont les plus utilisés. Certains sont décorés de motifs géométriques, d'autres de représentations d'oiseaux ou de canards, tandis que d'autres encore sont simplement noirs, bordés de couleurs vives et brodés de fils d'or. Les femmes et les enfants les nouent autour de leur tête de différentes façons, tandis que les hommes s'en servent pour attacher leur *haïk*, enroulé à l'avant afin de ne pas gêner la marche. Le pauvre, qui ne peut s'offrir un turban, porte son mouchoir roulé autour de la tête, laissant le sommet du crâne à découvert. Les ménagères, quant à elles, utilisent les mouchoirs les plus grands pour emballer des paquets ou couvrir des plats. Mais il faut bien le dire, l'usage auquel ce carré de tissu, qu'il soit de coton, de soie ou de lin, est normalement destiné—et que nous considérons comme indispensable—est ici soit ignoré, soit très limité.

À côté de la boutique de mouchoirs se trouve une épicerie, avec ses jarres d'huile et de beurre plus ou moins rance—des jarres qui pourraient figurer dans une pantomime d'*Ali Baba*—ainsi que des guirlandes d'oignons, d'ail et de splendides piments rouges suspendus aux murs. On y trouve aussi des lentilles et de la semoule, vendues dans des boîtes et des paniers. Un peu plus loin, une sellerie expose des piles de cuir empilées sur des étagères. Les artisans y travaillent avec soin et talent, brodant avec du fil d'or, d'argent et de soie le dosseret et le pommeau des selles rouges,

ainsi que des bourses et des pochettes finement ouvragées. Peu de ces boutiques possèdent un étage. Dans les grandes places du marché, bien ombragées par de hauts arbres, des marchands de vêtements d'occasion, de vieux fers, d'armes à feu, de fruits et de poteries étalent leurs marchandises. Des enfants, habillés de couleurs vives, tels des oiseaux exotiques en liberté, courent et jouent parmi les étals, tandis que des groupes d'hommes paresseux s'attardent aux cafés, observant des parties de dames.

À la grande mosquée, au centre de la ville, une foule nombreuse se rassemble à midi pour la prière. Au milieu de la vaste cour pavée de dalles d'onyx algérien et de briques, un bassin rond accueille de silencieux fidèles, accomplissant leurs ablutions dans un bruit de clapotis et d'expectoration. On me permit de continuer mon étude dans la cour pendant que l'office se déroulait. Avec la régularité des sectes *Shakers*, des bataillons de musulmans agenouillés se prosternent, embrassent le sol, se relèvent, s'agenouillent à nouveau, formant de longues rangées qui remplissent la mosquée d'un bout à l'autre, seules interrompues par les grandes colonnes carrées, au nombre de plus de soixante-dix. À intervalles réguliers, un grand chant de seize ou vingt mesures est repris par toute l'assemblée. Hormis cela, le silence est absolu, uniquement rompu par la voix sonore du mufti récitant des versets du Coran.

De l'autre côté de la place publique centrale se trouve une école, une petite *Babel* où s'entassent soixante garçons ou plus. L'instruction intellectuelle y est très limitée et n'inquiète guère les parents, qui se contentent d'enseigner très tôt à leurs enfants à réciter : — *« Je témoigne que Mohammed est l'apôtre de Dieu »*, ainsi qu'à détester les chrétiens. Le reste de leur éducation consiste en quelques règles élémentaires d'arithmétique et à mémoriser autant de passages du Coran que possible.

(Qu’il soit bien entendu que nous parlons ici des écoles purement arabes, et non des autres établissements où l’influence française commence à se faire sentir. L’un des plus grands bâtiments d’Alger est le lycée, où environ huit cents chrétiens, juifs et musulmans reçoivent une éducation commune.)

Le vieux professeur de l’école de la place publique est assisté par plusieurs élèves plus âgés, qui s’occupent des plus jeunes. Il en résulte un flot continu de voix aiguës et graves, chacune essayant de couvrir les autres. Les enfants crient de plus en plus fort à mesure qu’ils reprennent leur souffle et débitent leurs récitations à un rythme tel qu’il semble impossible de distinguer une syllabe d’une autre. Durant mon séjour, je demandai souvent à mon jeune guide du jour ce qui se récitait. Il haussait simplement les épaules et répondait : — *« Je sais pas, Mossou, connais pas ça, moi. »* Si mon lecteur veut se faire une idée de ce que l’un de ces enfants récite, qu’il essaie de répéter à toute vitesse, et à plein poumon : — *« Allah Illah-Allah-Akhbar-Mohammed-wally-golly-jolly-holly… »* Puis qu’il multiplie cet effet par le nombre d’élèves engagés dans cette cacophonie et il aura une idée plus précise de ce vacarme.

On oblige les enfants à réciter aussi fort que possible afin de renforcer leurs poumons, une exigence particulièrement importante pour ceux qui deviendront *muezzins*, chargés d’appeler à la prière du haut du minaret. Ceux qui sont destinés à un métier manuel apprennent parfois à écrire et acquièrent quelques notions d’arithmétique utile. Pour varier la monotonie des récitations, il arrive qu’un élève soit allongé sur les genoux du vieux maître, assis en tailleur, qui le saisit par les chevilles et lui administre une série de coups de bâton sur la plante des pieds—une forme douce de *bastonnade*.

À PROPOS DES ENFANTS

Le matériel scolaire et les livres d'un élève dans une école arabe ne coûtent pas cher à ses parents. Une ardoise—en réalité une planche de bois dur—sert de support à l'apprentissage. Sa surface devient aussi lisse que du verre grâce à l'application répétée d'une fine couche d'argile blanche, humidifiée avec de l'eau et étalée du bout des doigts. Lorsque l'élève a rempli sa tablette sur les deux faces de dictées extraites du Coran, écrites à l'encre avec un roseau, et qu'il en a mémorisé le contenu, il la lave et renouvelle la couche d'argile. Une erreur se corrige facilement d'un simple passage du doigt mouillé. Comme tout écolier du monde, le garçon arabe est espiègle et ne peut s'empêcher de casser, mordiller, entailler, rafistoler quelque chose. Sa tablette finit par ressembler à une carriole bringuebalante, rafistolée avec de la colle, des clous, des morceaux d'étain et de laiton, renforcée par des traverses et des coins de fortune. L'argile miraculeuse vient combler toutes les fissures.

Sur les murs de la classe est suspendu un grand tableau noir; sur le sol recouvert de nattes s'entassent burnous et chaussures, mais point de manuels, de grammaires, de géographies ou d'autres accessoires scolaires maculés d'encre, comme on en trouve sur les bancs et les pupitres de nos écoles. Des groupes de petits garçons aux yeux noirs, âgés de trois à cinq ans, se mêlent à d'autres élèves plus âgés, jusqu'à dix-sept ou dix-huit ans. Tous portent leur *tarbouche* rouge à gros glands bleus, des vestes et des burnous de toutes les nuances et couleurs, illuminés par les rais de lumière filtrant à travers les fines arabesques des fenêtres en verre teinté. Ce spectacle mouvant, aux couleurs

chatoyantes, forme un kaléidoscope fascinant. Tout autour, le lambris blanchi à la chaux est largement taché et usé par les dos, les mains et les têtes qui s'y appuient. Au-dessus, de délicates arabesques en stuc ornent les murs. Bien que légèrement délabré, cet intérieur demeure intact et préservé de toute restauration maladroite, offrant l'un des plus beaux exemples de l'art mauresque. Ce bâtiment était autrefois une petite mosquée, dont le plafond en bois peint et orné, aujourd'hui presque en ruines, repose sur des arcs soutenus par des colonnes d'onyx.

En parcourant les rues, nous passâmes devant des échoppes de bijoutiers—de sombres petites alcôves où des artisans en argent façonnaient des bracelets, des épingles à *haïk*, des chevillières, à l'aide d'outils rudimentaires, soufflets de forge et enclumes dignes d'un forgeron. Un jeune Israélite, héritier du métier de son père et animé d'un instinct commercial affûté, tenta de me convaincre d'acheter quelque chose, agitant ses babioles sous mes yeux avec insistance.

Je reviens encore aux enfants, car cette rue débordait de petits Tlemcéniens, qui n'avaient jamais quitté leur ville natale et probablement ne la quitteraient jamais. Les garçons couraient vêtus d'une simple chemise blanche et d'un gilet bleu foncé. Mais parmi les créatures les plus ensorcelantes, les petites filles surpassaient sans conteste toutes les autres. Elles étaient partout et frappaient immanquablement l'attention d'un étranger, et plus encore celle d'un artiste. Certaines se rendaient chez le boulanger, portant sur la tête une planche empilée de pains non cuits ; d'autres transportaient, dans de petits seaux cerclés de laiton, du lait débordant à ras bord. Seules ou en groupes, elles étaient toujours fascinantes, non seulement par leur beauté, mais aussi par l'incroyable variété de leurs costumes. Elles surgissaient d'un coin d'ombre, s'élançaient sous le soleil et disparaissaient en un clin d'œil au détour

d’une rue ou derrière une porte. Elles portaient d’abord une chemise blanche aux manches de gaze, sur laquelle elles superposaient une *gandoura*, une robe sans manches descendant presque jusqu’aux chevilles. Cette *gandoura* était souvent en calicot imprimé, aux couleurs éclatantes, parsemée de taches, de rayures, d’oiseaux, de branches et de feuillages. Parfois, elle était en brocart riche ou en soie légère. Par-dessus la première, elles revêtaient souvent une seconde *gandoura* de tulle ajouré, fait d’un simple tissu de rideau en dentelle blanche.

Les étoffes, souples et légères, flottaient et ondulaient à chacun de leurs pas. Autour de la taille, une large ceinture soulignait la silhouette, et sur les épaules, un petit gilet complétait l’ensemble. Sur la tête, elles portaient un bonnet conique, presque toujours en velours cramoisi, orné de fils d’or plus ou moins travaillés. Les enfants et les jeunes filles non mariées attachaient ce bonnet sous le menton avec une lanière, tandis que les femmes mariées le fixaient avec un foulard coloré en plus de la sangle. Leurs cheveux étaient coupés droit au-dessus des sourcils et tressés dans le dos. La teinture des cheveux en brun foncé tirant sur le rouge vin nécessitait plusieurs jours, pendant lesquels les jeunes filles apparaissaient sous un jour peu avantageux.

La pâte de henné, préparée en une bouillie épaisse, était appliquée généreusement sur toute la chevelure, enroulée et maintenue en place autant que possible. L’excédent coulait sur la nuque, les joues, et jusque dans les oreilles, donnant l’étrange impression d’une tête sculptée en cire, aux cheveux figés en masses compactes. Les paumes des mains, les doigts, ainsi que les pieds et les orteils étaient également teints de cette couleur chaude et profonde. Une charmante petite voisine, qui habitait près de la fenêtre de mon hôtel, disparut plusieurs jours. Je la retrouvai plus tard, assise tristement sur le seuil de sa maison, l’avant-bras et la

main gonflés. Elle venait de subir une douloureuse séance d'embellissement, au cours de laquelle des losanges, des étoiles et des rayures avaient été tatoués sur sa peau à l'aide d'aiguilles trempées dans de l'encre indienne ou une substance similaire. Histoire de rentabiliser la séance, sa tête avait été simultanément enduite de henné. Ainsi va la coquetterie. Je lui offris ma sympathie : — *« Ah, ma petite amie, il faut souffrir pour être belle ! »* Mon jeune guide traduisit fidèlement mes paroles en arabe. Elle n'avait pourtant rien perdu de l'usage de ses talons, bien qu'ils fussent teintés d'un profond ton terre de Sienne brûlée. En un éclair, elle se leva et fila dans sa maison, oubliant momentanément la douleur de son bras qu'elle avait jusque-là si précieusement ménagé.

BOU-MÉDINE

À environ un mile à l'est de Tlemcen, le village de Bou-Médine s'étend sur un versant plus élevé. En tant que ville, il est pratiquement éteint ; un seul café peut être considéré comme encore à moitié florissant.

L'ancien saint patron, *Sidi Bou-Médine* (ou Médian), repose paisiblement dans sa *kouba*, toujours entretenue et constamment visitée. Le gardien, un énorme trousseau de clés en main, ne cesse de faire des allées et venues, ouvrant la porte du sanctuaire aux pèlerins et aux visiteurs, de qui il reçoit une obole en échange. La *kouba* est ornée de draperies de soie, surmontée de drapeaux, d'*ex-voto*, de cierges, d'œufs d'autruche et d'inscriptions sous verre. La cour ouverte menant au tombeau se rejoint en descendant une quinzaine de marches depuis une autre petite cour extérieure. Quatre magnifiques colonnes d'onyx et un ancien puits de marbre attirent particulièrement l'attention. Les deux seaux attachés à une longue chaîne ont été si souvent descendus et remontés avec l'eau sacrée durant les six derniers siècles que le marbre en est usé en sillons profonds de près de quarante centimètres. Autrefois, de petits carreaux verts, bruns, jaunes et blancs, finement ornés en relief, couvraient le sol ; mais les chasseurs de souvenirs en ont tant arraché que le gardien est désormais tenu responsable, par le gouvernement français, de chaque carreau restant.

Pendant que je réalisais des études dans ce sanctuaire empreint de quiétude, j'eus une occasion rare d'observer les femmes venues brûler de l'encens devant la *kouba* et implorer l'aide et la bénédiction de *Sidi Bou-Médine*. (Elles invoquent aussi le Prophète, l'appelant *Sidi* ou

Monsieur Mohammed.) Elles descendaient les marches encore voilées, mais, en apercevant seulement un *roumi* absorbé dans ses esquisses, elles relâchaient leur *haïk*, qu'elles tiennent habituellement si serrer qu'un seul œil peut voir à travers une petite ouverture triangulaire. Ici, le voile ne se porte pas comme à Alger. Un fait curieux est que le costume des femmes et des enfants de pure souche tlemcénienne est presque identique à celui des Juives de Constantine, pourtant plus éloignée qu'Alger. À certains égards, leur tenue rappelle aussi celle du Maroc—ce qui n'est guère surprenant, étant donné que la frontière n'est distante que d'environ soixante-dix kilomètres.

En face du tombeau du *sidi* se dresse la mosquée qui porte son nom. Cet admirable exemple d'architecture mauresque pure est resté pratiquement intact. Il rappelle si fortement l'Alhambra qu'on a presque l'impression d'avoir un pied dans le célèbre palais de Grenade et l'autre dans la mosquée de Bou-Médine. Une douzaine de marches mènent à des portes gigantesques, recouvertes de plaques de bronze d'un millimètre d'épaisseur et ornées de motifs géométriques, un chef-d'œuvre du genre. Les portes sont sécurisées à l'intérieur par des verrous en bronze de près d'un mètre de long et de huit centimètres de diamètre, le verrou vertical s'emboîtant dans une ouverture du verrou horizontal. Dans les cours pavées, les enfants jouent librement. Après plusieurs jours passés à travailler dans cet espace sacré, je réussis enfin à convaincre certains d'entre eux de poser pour moi. Bien sûr, ces charmants petits êtres, richement vêtus, refusaient d'abord catégoriquement, mais ils prenaient plaisir à prêter des morceaux de leurs vêtements à leurs camarades plus pauvres, dont le besoin de quelques sous l'emportait sur leurs scrupules héréditaires quant à être représentés. J'aurais pu dire qu'il y avait trois

cents enfants autour de moi, mais en réalité ils étaient une douzaine, bondissant d’excitation.

Ma jeune modèle, vêtue d’une *gandoura* trop longue, d’une autre trop courte, et d’un corsage si serré sous les bras qu’il semblait presque la soulever du sol, me demanda après cinq minutes si j’avais terminé mon dessin. Elle déclara qu’elle méritait un franc pour chaque tranche de cinq minutes au-delà du tarif convenu. Ses amis l’appuyèrent vigoureusement et menacèrent de lui arracher les cheveux si elle restait une minute de plus, tout en menaçant d’effacer mon croquis si je la retenais davantage. Dans ce tumulte, je tentai de travailler, mes nerfs à vif, mes cheveux dressés sur la tête ; une ménagerie en flammes n’aurait pas généré plus d’agitation. Je ne trouvai qu’une issue à ce chaos : offrir un franc à l’aîné du groupe pour disperser la troupe hors de la mosquée. L’offre fut acceptée, et je fus bientôt seul pour peaufiner mon arrière-plan. Bien sûr, Miloud, mon fidèle compagnon, dormait paisiblement au café quand j’avais le plus besoin de lui.

Cette journée fut décidément mouvementée. Depuis mon premier petit déjeuner, j’étais destiné à jeûner partiellement jusqu’au soir, comme on va le voir. Mon repas de midi, soigneusement préparé et emballé dans un panier, était sous la garde de Miloud. Pendant que je travaillais dans la mosquée et que mon guide ronflait dans un coin, le panier avait été laissé à l’extérieur, derrière la porte que j’avais fermée pour me protéger du courant d’air. Quand je ressentis enfin la faim et demandai mon repas, nous ouvrîmes la porte pour découvrir une scène inattendue : un chat effrayé s’enfuit à toutes jambes, emportant la carcasse de notre poulet ! Il ne nous restait plus que quelques œufs et une petite bouteille de vin, que la pauvre bête n’avait pas eu le temps de terminer. Les œufs roulèrent dans les escaliers et se brisèrent en mille morceaux. Nous fîmes donc

avec ce qui restait : du pain et du vin, ce dernier étant entièrement pour moi, grâce aux scrupules religieux de Miloud. Il alla ensuite me chercher une tasse de café chaud au café voisin—qui, en ce moment précis, me parut être le meilleur que j'aie jamais bu. Mon ami musulman me demanda de ne pas renverser une goutte de vin dans la cour, de peur que cela ne souille la mosquée et n'offense le Prophète. Je m'empressai d'obtempérer.

Un matin, ma bonne étoile me guida jusqu'à la mosquée alors que les femmes du village s'affairaient à leur grand ménage, lavant et frottant à l'eau puisée à la fontaine centrale. Vêtues comme lors des lavages décrits plus tôt—pieds nus, vêtements remontés au-dessus des genoux, manches nouées dans le dos—elles portaient aussi une profusion de bijoux. La semaine suivante, mon étoile fut moins clémente : le gardien s'apprêtait à me refuser l'entrée. Mais, grâce à une *clé en argent*—toujours très efficace en ce pays—je fus finalement admis. En usant du même stratagème, j'obtins l'autorisation d'assister au sacrifice d'un mouton dans la cour de la demeure privée du gardien.

Au centre de la cour se trouvait une fontaine octogonale remplie de plantes. Sur le côté, une seconde fontaine, plus petite, en marbre sculpté en formes côtelées et entourée d'un bassin carré magnifiquement orné de carreaux de faïence. Tout était d'une propreté scrupuleuse, à l'image de la tenue impeccable du gardien, un homme à l'allure distinguée. Le musulman venu accomplir le sacrifice était vraisemblablement un Arabe nomade. Ses récoltes avaient été abondantes, ou peut-être ses prières exaucées, et il avait promis un mouton à *Sidi Bou-Médine* en échange de son intercession auprès d'Allah. Car ici, on attend d'abord de voir son vœu réalisé avant de s'acquitter de l'offrande promise. Une partie importante de chaque bête sacrifiée revient de droit au gardien du sanctuaire ; le

reste est distribué aux pauvres. Le mouton, dont les bêlements trahissaient une inquiétude grandissante, fut traîné vers un trou creusé dans l'angle de la cour, où l'eau s'écoulait de la fontaine. Il y trouva une fin rapide sous la lame du couteau sacrificiel.

Je ne pus m'empêcher de penser qu'un fanatique aurait pu, avec la même conviction religieuse, tenir ma propre tête au-dessus de l'eau courante, persuadé d'accomplir ainsi un acte de dévotion aux préceptes du Prophète. Près des marches de la mosquée, un grand bassin de marbre rempli d'eau courante servait habituellement à ces sacrifices.

À gauche de l'entrée, une pièce servait d'école—la seule, à ma connaissance, dans ce village à l'abandon. Les garçons privilégiés y recevaient une instruction, et leurs récitations résonnaient dans la cour six à sept heures par jour. Quant aux filles, privées d'éducation, elles passaient la majeure partie de leur temps à jouer. Cependant, elles ne perdaient jamais de vue les bénédictions qu'elles convoitaient. Régulièrement, l'une d'elles s'élançait pour soulever et faire claquer le heurtoir de fer sur la porte menant au tombeau du *sidi*, tout en s'écriant plaintivement : — *Ya sidi ! Ya sidi !* Elles espéraient ainsi attirer l'attention du marabout, avant de reprendre leurs jeux en riant et en virevoltant autour de mon chevalet, devenu le point central de leurs rondes et cabrioles.

À midi, le gardien de la mosquée, seul habilité à remplir la fonction de *muezzin*, monta au sommet du minaret et lança l'appel à la prière. Les tuiles ornant la tour et les toits scintillaient sous le soleil brûlant. De minces volutes de fumée bleue s'élevaient paresseusement des habitations. Dans les cours intérieures, on apercevait les habitants préparant leur ration de soupe ou faisant chauffer le café. Souvent, Miloud et moi

prenions notre repas sous un arbre, en hauteur, avec une vue imprenable sur les toits de Bou-Médine, les terrasses plates et les maisons en contrebas. La voix du *muezzin*, parfaitement entraînée, portait au loin. Il récitait : — *Allah… Illah !* Il étirait et amplifiait les dernières syllabes, les faisant monter crescendo avant d'expirer brusquement sur la dernière note. Dans le silence absolu qui nous entourait, on aurait dit que ces vagues sonores voguaient au-delà de la vaste plaine ondulant sous la chaleur, pour aller se fondre dans la Méditerranée, au-delà des collines lointaines.

Miloud

En retournant à Tlemcen, nous passions presque chaque jour par le cimetière, où des groupes de femmes en deuil étaient blottis les unes contre les autres, chuchotant près d'une tombe fraîchement creusée. Les nouvelles pierres tombales, constituées d'une dalle placée à la tête et d'une autre aux pieds, étaient arrondies à leur sommet. Sur leurs surfaces planes, des inscriptions en relief étaient peintes de couleurs vives.

Miloud et moi discutions des événements de la journée, et il me fit part de certaines de ses idées, pour le moins particulières. Il m'informa, par exemple, que les grands lézards, appelés *bellam*, qui traversaient parfois notre chemin, étaient les dévoreurs de cadavres. — *« Maintenant, Miloud, pourquoi n'éduquez-vous pas les filles ? »* lui demandai-je. — *« Oh, mais non ! Les filles n'ont aucune importance ; elles peuvent aider aux travaux domestiques, laver le sol des mosquées et attendre d'être mariées. Elles ne servent qu'à l'usage et au plaisir des hommes. Tous les malheurs du monde viennent des femmes ; elles sont responsables de tout ce qui va de travers. Lorsqu'un mari se lasse de son épouse, il a parfaitement le droit de s'en débarrasser. »*

— *« Mais Miloud, vous n'êtes peut-être pas éclairé selon nos conceptions. Vous devriez voyager dans nos pays du Nord. Vous verriez que je ne suis pas le seul à défendre les droits des femmes. »*

Il s'arrêta net au milieu du chemin, posa son index sur son front et me regarda avec gravité.

— « Vraiment, monsieur, c'est incompréhensible. Vous avez l'air d'un homme intelligent, vous semblez connaître beaucoup de choses et les juger avec raison, tout comme moi ; mais sur la question des femmes, je ne comprends pas comment vous pouvez parler ainsi. Hein ? »

Pour détourner la conversation, je lui demandai mon manteau, en lui faisant remarquer que la soirée devenait fraîche et que, comme nous avions marché rapidement, il était plus prudent pour moi de le mettre. J'expliquai ma raison d'éviter le froid. Miloud y vit un signe d'intelligence et, flatté, me déclara : — *« Ah, justement, c'est ce que j'allais vous dire : mettez votre manteau. Y avez-vous pensé tout seul ? Vous avez décidément de bonnes idées. Bravo ! »*

Vous ne serez pas surpris, cher lecteur, après cet exemple, d'apprendre que Miloud était un excellent guide lorsqu'il s'agissait de trouver les raccourcis menant aux différents lieux d'intérêt. En revanche, il s'avérait peu fiable dès qu'il était question d'informations historiques. Ainsi, alors que nous nous arrêtions sur notre chemin du retour devant les ruines d'une mosquée, près des anciennes murailles envahies de mauvaises herbes et de ronces, je lui demandai : — *« Miloud ben Mohammed ben Koujahbass ben Alexandre le Grand, comment ces pierres d'angle à gauche, ainsi que cette grande pierre au centre portant des inscriptions romaines, se sont-elles retrouvées dans la construction de ce magnifique minaret bâti par les rois mauresques de Tlemcen ? »* D'un air assuré, il me montra plusieurs ouvriers qui creusaient à proximité et répondit : — *« Ah, monsieur, voyez mes amis ici présents »* (désignant les travailleurs qui mettaient au jour des briques, des fragments de statues, de colonnes et d'autres pierres similaires). Puis, après une pause, il ajouta avec un sourire : — *« Mais… euh… monsieur, ouvrez donc votre guide, cherchez Tlemcen, ruines d'Agadir, et vous trouverez toutes les réponses !»*

CÉRÉMONIES DE MARIAGE

Miloud me rappela que deux cortèges de mariage allaient avoir lieu ce soir-là à Tlemcen et qu'il valait mieux remettre à plus tard notre visite aux vestiges romains. Nous prîmes donc le temps de dîner, puis nous nous donnâmes rendez-vous sur la *Place*, au café, immédiatement après, car les festivités devaient commencer dès que l'obscurité permettrait aux torches de déployer tout leur effet. Comme Miloud était lui-même passé par cette cérémonie autrefois, il m'expliqua comment ces événements se déroulaient et comment les contrats de mariage étaient conclus.

Tout commence par une discussion informelle entre les grand-mères paternelles des futurs époux. Elles échangent sur la possibilité de l'union et, comme elles connaissent la sagesse du proverbe *« La nuit porte conseil »*, elles prennent le temps de réfléchir. Si, au matin, elles ne trouvent aucune objection, l'affaire passe aux pères, qui négocient la somme d'argent que le futur mari devra verser. Cette somme varie bien sûr en fonction du statut et de la richesse des familles. Il arrive parfois que la mariée soit une orpheline possédant une fortune, auquel cas elle peut poser ses propres conditions et choisir son époux. Mais, en règle générale, ce sont les parents qui décident de l'union. Le jeune homme, quant à lui, n'a souvent jamais vu sa promise. Cependant, il arrive qu'ils aient été camarades de jeu jusqu'à ce que, vers douze ou treize ans, la fille soit contrainte de porter le voile selon la coutume. À Alger, cependant, les filles de bonne famille portent parfois le voile dès l'âge de six ou huit ans. Là où elle possède un avantage sur son futur mari, c'est qu'à travers

l'ouverture triangulaire de son *haïk*, elle peut, au moins avec un œil, observer son prétendant.

La cérémonie peut avoir lieu à tout moment de la journée ou en soirée. Les artisans et travailleurs préfèrent le soir, tandis que les familles aisées et oisives prolongent les festivités sur trois ou quatre jours. La famille et les amis du marié se rassemblent chez lui avant de former un cortège à travers la ville. La mariée est ensuite conduite à sa nouvelle demeure, où elle l'attend dans une chambre intérieure, assise sur un lit, immobile comme une idole, tenant dans ses mains un mouchoir plié. Pourquoi cette posture? À cette question, Miloud se contenta de répondre : — *« C'est l'habitude, comme ça. »*

Le marié entre seul dans la pièce, soulève le voile et découvre pour la première fois le visage de son épouse—peut-être une inconnue, peut-être une amie d'enfance, peut-être celle qui lui fut promise depuis un mois ou plusieurs années. À cet instant, les femmes de la famille et les invitées, qu'elles soient dans la maison ou postées sur les terrasses voisines pour espionner la scène, expriment leur approbation par un concert de *you-you-you-you-you !* Pendant ce temps, des musiciens professionnels, dont les joues distendues par l'habitude pourraient servir de soufflets de forge, soufflent dans des clarinettes stridentes. Les grands tambours, frappés avec des bâtons courbés, et les petits *derboukas*, martelés à mains nues, créent un vacarme infernal.

Les enfants, qui constituent un élément d'animation constant, sont partout, parés de leurs plus beaux atours, virevoltant comme des perruches et des faisans multicolores. Lorsque le marié réapparaît dans la cour, il est installé sur un coussin, tandis que deux amis agitent de grands mouchoirs colorés au-dessus de sa tête, les frôlant parfois sur son

visage. Pourquoi ce rituel ? Là encore, Miloud eut une réponse simple :
— *« C’est l’habitude.»*

J’assistai à ces scènes, et, à ma grande surprise, je fus même invité à prendre place parmi les spectateurs indigènes et à partager un immense plat de couscous. Je dois avouer que cette situation me mit quelque peu mal à l’aise, car j’étais l’objet de toutes les attentions, étant le seul étranger présent. Mais qu’importe mon appétit, il me semblait impensable de ne pas honorer l’invitation cordiale de mon hôte, un homme fort courtois qui parlait bien le français. Ma seule manière de le remercier, outre mes vœux de bonheur et de prospérité, fut de faire circuler mon étui à cigarettes.

Après le repas, la *narghilé* fut allumée, et le *rose-water* dans la bouteille de verre gravée et dorée se mit à bouillonner sous les inhalations des convives, qui fumaient à tour de rôle par les longs tubes de l’appareil. Comme lors de fêtes similaires à Alger, les femmes installées sur les terrasses ou aux balcons considéraient qu’elles pouvaient assister aux festivités sans contrainte. Elles se sentaient chez elles, assez à l’aise pour relâcher partiellement leur voile et leur *haïk*. Les hommes, en revanche, n’étaient pas censés lever les yeux vers elles. Ma curiosité, pourtant naturelle, fut réprimandée à plusieurs reprises, et j’en conclus que lors des grandes fêtes publiques, les femmes venaient voir, mais ne devaient être vues que par celles de leur propre sexe.

Dans certaines régions d’Algérie et de Tunisie, des coutumes encore plus étranges existent. Par exemple, au moment où la mariée entre dans la chambre nuptiale, le marié marche à reculons en tenant un poignard dont la mariée effleure la pointe du bout des doigts. Une autre tradition, encore plus curieuse, soumet la mariée à une épreuve de résistance. Elle est

placée contre une colonne sur une place publique et doit rester debout, immobile, les yeux fermés, les bras le long du corps et les pieds posés sur une base étroite. L'épreuve dure parfois deux heures ou plus, et certaines jeunes femmes s'évanouissent sous l'effort.

Mais revenons au début du cortège qui précéda toutes ces réjouissances. Au milieu de la foule avançant lentement sous une allée bordée de grands arbres, le marié chevauchait un cheval noir, illuminé par les feux des torches et des bougies. Des cercles de tonneaux de différentes tailles, enveloppés de papier brillant et de rubans, formaient des pyramides lumineuses, portées sur des perches soutenues par de jeunes hommes. Ceux-ci se relayaient sans cesse, se disputant l'honneur de porter ces monuments improvisés. Deux amis tenaient le cheval du marié par la bride, tandis qu'un troisième agitait une baguette devant ses genoux pour l'inciter à se cabrer et l'empêcher d'avancer trop vite, au grand dam de la pauvre bête.

Le marié, lui, était presque invisible : seuls dépassaient l'extrémité de son nez, sa moustache et ses pieds. Entièrement enveloppé dans son *burnous*, la cape rabattue sur la tête et les glands tombant devant ses yeux, il semblait vouloir s'effacer. Je l'avais pris pour un jeune homme de vingt-cinq ans, mais j'appris plus tard qu'il avait quarante-cinq ans. Célibataire endurci, il avait fini par se résoudre au mariage, bien tard pour un Arabe. Le cortège était ouvert par des musiciens, produisant un vacarme assourdissant en tonalité mineure. Deux violonistes juifs, considérés comme des professionnels talentueux, dirigeaient l'orchestre. L'un jouait d'un violon moderne, l'autre, avec un archet, produisait des sons sur un instrument proche d'une guitare. Tous deux tenaient leur violon comme un Cello. Bien que juifs, ces musiciens étaient acceptés par

les Arabes, qui les considéraient comme de simples professionnels rémunérés pour l’occasion.

LA LÉGENDE DE AÏN-EL-HOUTZ

Dans la plaine, un village tire son nom d'une source auréolée de légendes. *Ain-el-Houtz*—la Source-aux-poissons—est un petit étang rempli de poissons, qui, aujourd'hui, ne semble guère avoir eu, dans un passé lointain, l'apparence d'un lac romantique. Pourtant, une légende charmante, transmise à travers les siècles, raconte ceci : Djafar, un prince de sang noble, fils d'un roi de Tlemcen, chassait un jour une gazelle avec ardeur. Soudain, il aperçut Ai'cha, la jeune et ravissante fille du cheikh du village, qui se baignait dans un recoin isolé, à l'ombre des oliviers, des saules pleureurs et des lauriers roses chargés de fleurs blanches et roses. La gazelle, surgissant brusquement, effraya la jeune fille. Lorsqu'elle vit le prince, qui se lança aussitôt à sa poursuite, elle prit la fuite dans une panique grandissante. Elle courut jusqu'à la source et, dans un ultime élan pour échapper à l'emprise du prince, elle plongea dans l'eau… Et aussitôt, la pure jeune fille se transforma en un poisson aux couleurs éclatantes, aux reflets d'or et d'argent.

Un village mort, presque enseveli sous un épais manteau de cactus brûlant sous un soleil implacable, Ain-el-Houtz semblait oublié du monde. Pourtant, il conservait un centre d'attraction : un café, unique en son genre, niché sous l'ombre bienveillante d'un chêne vénérable. Les immenses branches étendues et le feuillage dense filtraient la lumière de cet ennemi d'été, le soleil, qui ne parvenait à percer qu'en de rares taches vacillantes sur le sol. Sous le café, un ruisseau murmurait doucement, serpentant à travers les terres, avant de s'éparpiller dans les champs de

blé alentour, les irriguant grâce à un réseau de petits canaux aux rives boueuses.

Un compagnon de voyage, Miloud et moi, avons pris notre déjeuner sur la nattes dépliées. Ensuite, de l'inévitable café, nous avons commandé une douzaine de tasses, acceptées avec grâce par ceux qui nous entouraient. Le propriétaire de l'établissement avait servi la France avec fidélité et avait gagné plusieurs décorations, qu'il portait cousues sur le côté gauche de son *burnous*, et pour lesquelles il avait bien payé en laissant une jambe sur le champ de bataille en 1870. Il avait vécu trois ans à Paris; mais le lieu de sa naissance, son cher et solitaire village de Aïn-el-Houtz, possédait des attractions plus fortes que toutes les autres, et il était revenu avec ses béquilles et ses honneurs pour y finir ses jours paisiblement, devenant le héros de sa ville natale, où ses innombrables récits de soldat étaient le plus appréciés... "un gros crapaud dans une petite flaque". Mais un nuage assombrit notre accueil jusque-là cordial, et notre départ fut froid, car mon compagnon de voyage du jour était un jeune officier prussien, fier de sa position et très franc à ce sujet. — *"Je suis Prussien, et étant passionné de voyages, je suis venu voir votre village."* Le vieux spahi se redressa, ferma fermement ses lèvres, le regarda pendant plusieurs secondes sans cligner des yeux et avec un rictus perceptible, puis détourna la tête et réarrangea son *burnous*, le jetant sur l'autre épaule. Il me soupçonnait naturellement d'être de la même nationalité, et je devins probablement aussi un objet de son antipathie.

Le café se trouvait à proximité immédiate de la mosquée, une construction rudimentaire blanchie à la chaux, entourée d'un mur encore plus

grossièrement édifié. Seul un recoin, où reposait le marabout, était entretenu ; l’épaisse couche de poussière et les pierres éparpillées dans la cour et la fontaine asséchée offraient des cachettes pour les scorpions et servaient de point de rendez-vous pour les lézards.

Le minaret, effilé vers le sommet, était surmonté d’un dôme incliné et orné, à chaque coin, d’une tourelle triangulaire. Le muezzin, un patriarche de presque quatre-vingt-dix ans, montait avec difficulté l’escalier de pierre irrégulier et, passant par une ouverture servant de porte, faisait d’abord apparaître son grand turban, suivi d’une main osseuse agrippant un long bâton. Il restait immobile quelques instants pour reprendre son souffle, puis tentait dans une voix rauque et à peine audible d’appeler à la prière, ajoutant ainsi un *Selam* de plus à ses milliers d’appels précédents—peut-être son dernier.

Nous nous sommes rendus dans un autre village plus éloigné, dans la plaine, qui, à en juger par les apparences récentes, a été considérablement agrandi ces dernières années par des maisons françaises modernes, et est devenu une garnison entourée d'un mur carré. Des cyprès noirs et les sommets des terrasses blanchis par endroits, un clocher d'église et un minaret penché se montraient au-dessus des fortifications jaunâtres. Les cérastes (vipère à cornes courte en arabe), avec le scorpion, et pouvaient passer des brochettes à travers leur chair sans faire couler le sang, en plus d'autres tours connus des Aissaoui, dont il pourrait être considéré comme un chef. De temps en temps, il sortait à moitié d'un sac en cuir un long serpent noir, qui se retirait dans l'obscurité, pour donner à l'assemblée un avant-goût du spectacle qui commencerait dès que sa collecte de pièces aurait atteint un certain montant. Il tenait tout le temps par la queue un céraste d'une couleur de poussière jaunâtre, une couleur qui rend cette espèce plus dangereuse,

car elle ne peut pas être facilement distinguée du sable du désert, où elle se cache à moitié. Il était trop lent pour lever la tête plus de la moitié jusqu'à la main qui le tenait. Il le laissa tomber plusieurs fois, mais le rattrapa habilement derrière les oreilles avant qu'il n'atteigne les jambes nues des spectateurs, qui quittèrent leur place et élargirent le cercle en moins de temps qu'il ne me faut pour informer mon lecteur du fait. Il est plus que probable que le venin soit toujours retiré par les charmeurs de ces reptiles, dont la morsure peut entraîner la mort en une demi-heure.

Le prélude et la collecte ont pris plus de temps que le véritable spectacle, qui consistait à permettre aux longs serpents inoffensifs, inoffensifs en ce qui concerne leur morsure, de le serrer à moitié et de chercher un refuge autour de sa taille à l'intérieur de sa chemise. On nous a dit que les trous dans les joues et les bras étaient autorisés à guérir pendant qu'une paille ou une éclisse y était laissée, et que les jongleurs passaient toujours les brochettes par les mêmes trous qui leur étaient destinés.

Il est dit du scorpion que s'il est entouré d'un anneau de feu par lequel il ne peut pas s'échapper, il courbera sa queue sur son dos et se piquera à mort dans la tête ; mais lever sa queue en forme de griffe d'oiseau très courbée est un mouvement naturel de défense, et probablement pas dans le but de piquer. Une route droite et poussiéreuse menait à travers une allée d'arbres au portail. Une grande place, adaptée aux exercices militaires, avec des parcelles d'herbe sous les jeunes arbres, était le centre du village, et se trouvait devant les casernes. En passant par le vieux quartier arabe, où les différentes habitations sont séparées par des cactus aux troncs énormes et tortueux (de six à huit pouces de diamètre), et par des roseaux plantés dans le sol, nous sommes arrivés sur la place du marché. En entrant par les portes, un gendarme m'a abordé pour me demander mes papiers, et a été satisfait de quelques mots en réponse.

Le marché était un mélange de toutes sortes de marchandises à vendre, des rangées de tentes avec des boîtes pour comptoirs, où des estampes, des calicots, des burnouses de seconde main et d'autres vêtements étaient étalés ; en bref, un rassemblement arabe, comprenant des chameaux bruns, des ânes, des chevaux, leurs lourds selles et leurs épaisses couvertures mises de côté pendant qu'ils fouettaient leur queue à l'ombre ; des douzaines d'autres attachés juste au-dessus des sabots des membres antérieurs avec une longue corde, dont chaque extrémité était solidement arrimée dans le sol ; des chèvres, des moutons, des chiens, des charmeurs de serpents, des jongleurs, tous semblaient avoir été secoués ensemble dans un panier et jetés dans un amas généralement mélangé, comme un tableau sur lequel un artiste avait commencé et avait changé la composition vingt fois, laissant une tête d'âne, une patte de chameau, des orteils de nègre, à des endroits où ils ne devraient pas être.

Un peu à l'écart de la foule, une demi-douzaine de charmeurs de serpents marocains basanés divertissaient un cercle de spectateurs. Un grand fanatique se gesticulait dans une violente transpiration, les veines de son front et de son cou gonflant de plus en plus alors qu'il continuait son harangue, appelant ses admirateurs à croire qu'en ayant la foi, ils pouvaient faire comme lui, jouer avec le redoutable cobra, amenant le dard à la fin et le portant à sa tête. Il est très probable que c'est l'inquiétude, avec la suffocation, sinon la brûlure réelle, qui le tue.

Pour revenir à Tlemcen, l'opéra est une grande salle où des compagnies échouées avec des voix en dessous de la norme trouvent toujours des admirateurs. Le chef d'orchestre constitue l'ensemble de l'orchestre, qui est un piano sur lequel il joue et garde le rythme en faisant des signes de tête et des courbettes aux chanteurs.

Le public, le soir où nous avons vu "La Dame Blanche", était composé d'officiers, de leurs familles et d'autres résidents français dans la galerie, de soldats arabes et d'un rassemblement hétéroclite. La critique étant le privilège de la galerie, celle-ci a fait usage de ses droits reconnus ; et lorsque le duo "Je ne puis rien comprendre" a été chanté, "Ni moi non plus, vieux crâne de citrouille", est un exemple des observations faites pendant la représentation. La source d'amusement la plus provinciale et caractéristique était la table de jeu pour des sommes très modestes de Petits-Chevaux, qui était placée sous la galerie à proximité du bar. Des boissons étaient servies et il était permis de fumer pendant tout le spectacle, mais tout était abandonné pendant les entractes pour les Petits-Chevaux, dont le chef d'orchestre était un client assidu, ainsi que les chanteurs lorsqu'ils pouvaient s'échapper de leurs devoirs de la scène et de la loge.

الفهرس

رحلة فردريك أرثر بريدجمان لاستكشاف مدينة تلمسان

يقدم الرسام والمستشرق الأمريكي فريدريك أرثر بريدجمان في رحلته إلى مدينة تلمسان وصف لها في أواخر القرن التاسع عشر، خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية. في هذه الزيارة الاستكشافية، توجّه بريدجمان إلى المدينة التي كانت يومًا عاصمة الدولة الزيانية وقلب المغرب الأوسط، حيث استعرض أبرز معالمها التاريخية والحضارية. من بين تلك المعالم، أطلال المنصورة وأغادير، إلى جانب الجامع الكبير الذي يقع في قلب المدينة، وجامع سيدي الحلوي، و سيدي بومدين في أعالي العباد وغيرها من المعالم.

لم يقتصر وصف بريدجمان على المعالم الأثرية فحسب، بل امتد ليشمل الحياة اليومية لسكان تلمسان، حيث رصد تفاصيل حياة الأطفال والنساء، وطريقة تفاعلهم داخل المجتمع. كما أولى اهتمامًا خاصًا للأزياء التقليدية، خاصة ملابس النساء، مع وصف دقيق لمراسيم الزفاف التي كانت تُقام في المدينة.

اختتم بريدجمان رحلته بزيارة إلى قرية عين الحوت، التي ترك فيها انطباعاته الأخيرة قبل أن يتوجه مجددا إلى مدينة الجزائر، تاركًا وراءه وثيقة تاريخية تُجسد روح المدينة وتفاصيلها في تلك الفترة الزمنية المعقدة.


ISBN: 978-2-98017-254-0
9 782980 172540